

@ketab_n
Follow Me
31.12.2015
غسان كنفاني
عائد إلى حيفا

رواية

غسّان كنفاني

عائد إلى حيفا

منشورات الرمال



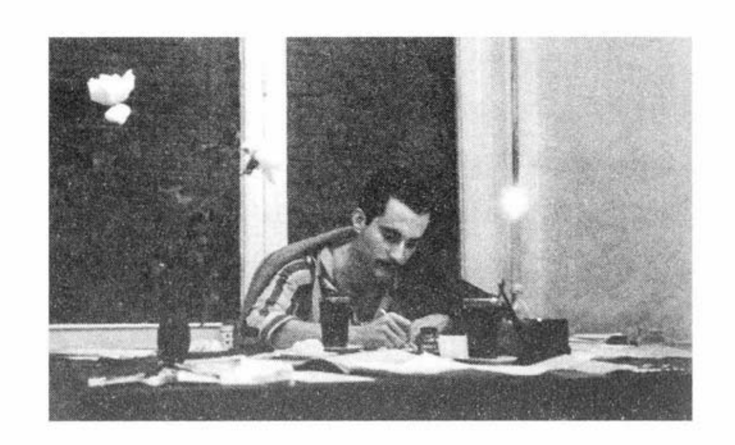
مؤسسة غسان كنفاني الثقافية

دار منشورات الرمال
قبرص
www.rimalbooks.com

الطبعة الأولى 2013
طبعة سنة 2015

ISBN 978-9963-610-91-4

نشرت هذه الرواية في طبعتها الأولى سنة 1969
صورة غسان كنفاني تصوير آني كنفاني
تصميم الغلاف: ميدا فريجي مقدسي
الخطاط: شوقي يوسف
الغلاف: لوحة لغسان كنفاني
طباعة: مطبعة كركي - بيروت



يُعتبر غسان كنفاني أحد أشهر الكتّاب والصحافيين العرب في عصرنا. فقد كانت أعماله الأدبية من روايات وقصص قصيرة متجذرة في عمق الثقافة العربية والفلسطينية، ومصدر وحيٍ لجيلٍ كامل في حياته وبعد استشهاده بالكلمة والفعل.

ولد في عكا، شمال فلسطين، في التاسع من نيسان/أبريل ١٩٣٦، وعاش في يافا حتى أيار/مايو ١٩٤٨ حين أجبر، بسبب الحرب التي أسفرت عن إنشاء إسرائيل، على مغادرة وطنه الأم واللجوء مع عائلته في بادئ الأمر إلى لبنان، ثم إلى سوريا. عاش وعمل في دمشق ثم في الكويت، وبعد ذلك في بيروت منذ سنة ١٩٦٠. وفي الثامن من تموز/يوليو ١٩٧٢ استشهد في بيروت مع ابنة أخته

لميس في انفجار سيارة مفخخة على أيدي عملاء إسرائيليين.

أصدر غسان حتى تاريخ وفاته المبكر ثمانية عشر كتاباً، وكتب مئات المقالات في الثقافة والسياسة وكفاح الشعب الفلسطيني. في أعقاب اغتياله تمّ إعادة نشر جميع مؤلفاته بالعربية، في طبعات عديدة. كذلك جمعت رواياته وقصصه القصيرة ومسرحياته ومقالاته ونشرت في مجلدات، وترجم العديد من أعماله الأدبية إلى عشرين لغة. كما دخل بعض أعماله في مناهج المدارس والجامعات، وتمّ إخراج بعضها أعمالاً مسرحية وبرامج إذاعية عربية وأجنبية عدة، واثنتان من رواياته تحولتا إلى فيلمين سينمائيين. وما زالت أعماله التي كتبها في الفترة ١٩٥٦-١٩٧٢ تحظى اليوم بأهمية متزايدة.

حين وصل سعيد س. إلى مشارف حيفا، قادماً إليها بسيارته عن طريق القدس، أحس أن شيئاً ما ربط لسانه، فالتزم الصمت، وشعر بالأسى يتسلقه من الداخل. وللحظة واحدة راودته فكرة أن يرجع، ودون أن ينظر إليها كان يعرف أنها آخذة بالبكاء الصامت، وفجأة جاء صوت البحر، تماماً كما كان. كلا، لم تعد إليه الذاكرة شيئاً فشيئاً. بل انهالت في داخل رأسه، كما يتساقط جدار من الحجارة ويتراكم بعضه فوق بعض. لقد جاءت الأمور والأحـداث فجأة، وأخذت تتساقط فوق بعضها وتملأ جسده. وقال لنفسه إن صفية، زوجته، تحس الشيء ذاته، وإنها لذلك تبكي.

منذ أن غادر رام الله في الصباح لم يكف عن الكلام، ولا هي كفت. كانت الحقول تتسرب تحت نظره عبر زجاج سيارته، وكان الحر لا يطاق، فقد أحس بجبهته تلتهب، تماماً كما كان الأسفلت يشتعل تحت عجلات سيارته، وفوقه كانت الشمس، شمس حزيران

الرهيب، تصب قار غضبها على الأرض.

طوال الطريق كان يتكلم ويتكلم ويتكلم، تحدث إلى زوجته عن كل شيء، عن الحرب وعن الهزيمة وعن بوابة منْدَلبوم التي هدمتها الجرارات، وعن العدو الذي وصل إلى النهر والقناة ومشارف دمشق خلال ساعات، وعن وقف إطلاق النار، والراديو، ونهب الجنود للأشياء والأثاث، ومنع التجول، وابن العم الذي في الكويت يأكله القلق، والجار الذي لمّ أغراضه وهرب، والجنود العرب الثلاثة الذين قاتلوا وحدهم يومين على تلة تقع قرب مستشفى أوغستا فكتوريا، والرجال الذين خلعوا بزاتهم وقاتلوا في شوارع القدس، والفلاح الذي أعدموه لحظة رأوه قرب أكبر فنادق رام الله. وتحدثت زوجته عن أمور كثيرة أخرى، طوال الطريق لم يكفّا عن الحديث. والآن، حين وصلا إلى مدخل حيفا، صمتا معاً، واكتشفا في تلك اللحظة أنهما لم يتحدثا حرفاً واحداً عن الأمر الذي جاءا من أجله!

هذه هي حيفا إذن، بعد عشرين سنة.

ظهر يوم الثلاثين من حزيران ١٩٦٧، كانت سيارة الفيات الرمادية التي تحمل رقماً أردنياً أبيض تشق طريقها نحو الشمال، عبر المرج الذي كان اسمه مرج بن عامر قبل عشرين سنة، وتتسلق الطريق الساحلي نحو مدخل حيفا الجنوبي. وحين عبر الشارع

ودخل إلى الطريق الرئيسي انهار الجدار كله، وضاعت الطريق وراء ستار من الدموع، ووجد نفسه يقول لزوجته صفية:

- هذه هي حيفا يا صفية!

وأحس المقود ثقيلاً بين قبضتيه اللتين أخذتا تنضحان العرق أكثر من ذي قبل، وخطر له أن يقول لزوجته: إنني أعرفها، حيفا هذه، ولكنها تنكرني، ولكنه غير رأيه، فقبل قليل فقط كانت فكرة قد خطرت له وقالها لزوجته:

- أتعرفين؟ طوال عشرين سنة كنت أتصور أن بوابة مندلبوم ستُفتح ذات يوم... ولكن أبداً أبداً لم أتصور أنها ستُفتح من الناحية الأخرى. لم يكن ذلك يخطر لي على بال، ولذلك فحين فتحوها هم، بدا لي الأمر مرعباً وسخيفاً وإلى حد كبير مهيناً تماماً.. قد أكون مجنوناً لو قلت لك إن كل الأبواب يجب ألا تفتح إلا من جهة واحدة، وإنها إذا فتحت من الجهة الأخرى فيجب اعتبارها مغلقة لا تزال، ولكن تلك هي الحقيقة.

والتفت إلى زوجته، إلا إنها لم تكن تسمع، كانت منصرفة إلى التحديق نحو الطريق: تارة إلى اليمين حيث كانت المزارع تمتد على مدى البصر، وتارة إلى اليسار حيث كان البحر، الذي ظل بعيداً أكثر من عشرين سنة، يهدر على القرب. وقالت فجأة:

– لم أكن أتصور أبداً أنني سأراها مرة أخرى.

وقال:

– أنت لا ترينها، إنهم يرونها لك.

وعندها فقط فقدت أعصابها، كان ذلك يحدث للمرة الأولى.

وصاحت فجأة:

– ما هذه الفلسفة التي لم تكف عنها طوال النهار؟ الأبواب والرؤيا وأمور أخرى، ماذا حدث لك؟

– ماذا حدث لي؟

قالها لنفسه وهو يرتجف، ولكنه تحكم بأعصابه وعاد يقول لها بهدوء:

– لقد فتحوا الحدود فور أن أنهوا الاحتلال فجأة وفوراً، لم يحدث ذلك في أي حرب في التاريخ، أتعرفين الشيء الفاجع الذي حدث في نيسان ١٩٤٨، والآن، بعد لماذا؟ لسواد عينيك وعيني؟ لا. ذلك جزء من الحرب. إنهم يقولون لنا: تفضلوا انظروا كيف أننا أحسن منكم وأكثر رقياً. عليكم أن تقبلوا أن تكونوا خدماً لنا، معجبين بنا.. ولكن رأيت بنفسك، لم يتغير شيء.. كان بوسعنا أن نجعلها أحسن بكثير..

– إذن لماذا أتيت؟

ونظر إليها بحنق، فصمتت.

كانت تعرف، فلماذا تسأل؟ وهي التي قالت له أن يذهب، فطوال عشرين سنة تجنبت الحديث عن ذلك، عشرين سنة، ثم ينبثق الماضي كما يندفع البركان..

وحين كان يقود سيارته وسط شوارع حيفا كانت رائحة الحرب ما تزال هناك، بصورة ما، غامضة ومثيرة ومستفزة، وبدت له الوجوه قاسيةً ووحشيةً، وبعد قليل اكتشف أنه يسوق سيارته في حيفا دون أن يشعر بأن شيئاً في الشوارع قد تغير. كان يعرفها حجراً حجراً ومفرقاً وراء مفرق، فلطالما شق تلك الطرق بسيارته الفورد الخضراء موديل ١٩٤٦. إنه يعرفها جيداً، والآن يشعر بأنه لم يتغيب عنها عشرين سنة، وهو يقود سيارته كما كان يفعل، كما لو أنه لم يكن غائباً طوال تلك السنوات المريرة.

وأخذت الأسماء تنهال في رأسه كما لو أنها تنفض عنها طبقة كثيفة من الغبار: وادي النسناس، شارع الملك فيصل، ساحة الحناطير، الحليصة، الهادار، واختلطت عليه الأمور فجأةً، ولكنه تماسك، وسأل زوجته بصوت خافت:

– حسناً، من أين نبدأ؟

ولكنها ظلت صامتة. وسمع صوتها الخافت يبكي بما يشبه

الصمت، وقدر لنفسه العذاب الذي تعانيه، وعرف أنه لا يستطيع معرفة العذاب على وجه الدقة، ولكنه يعرف أنه عذاب كبير، ظل هناك عشرين سنة، وأنه الآن ينتصب عملاقاً لا يصدق في أحشائها، ورأسها، وقلبها، وذاكرتها، وتصوراتها، ويهيمن على كل مستقبلها. واستغرب كيف أنه لم يفكر أبداً بما يمكن أن يعنيه ذلك العذاب، وبمدى ما هو غارق في تجاعيد وجهها وعينيها وعقلها. وكم كان معها في كل لقمة أكلتها، وفي كل كوخ عاشت فيه، وفي كل نظرة رمتها على أولادها وعليه وعلى نفسها. والآن ينبثق ذلك كله من بين الحطام والنسيان والأسى، ويأتي على ركام الهزيمة المريرة التي ذاقها مرتين على الأقل في حياته.

وفجأة جاء الماضي، حاداً مثل سكين: كان ينعطف بسيارته عند نهاية شارع الملك فيصل (فالشوارع بالنسبة له لم تغير أسماءها بعد) متجهاً نحو التقاطع الذي ينزل يساراً إلى الميناء، ويتجه يميناً نحو الطريق المؤدي إلى وادي النسناس، حين لمح مجموعة من الجنود المسلحين يقفون على المفترق أمام حاجز حديدي. وحين كان يرمقهم بطرف عينيه، صدر صوت انفجار ما من بعيد، وأعقبته طلقات رصاص، وفجأة أخذ المقود يرتجف بين يديه، وكاد أن يرطم الرصيف، وتماسك في اللحظة الأخيرة، وشهد صبياً يعدو عبر

الطريق، وعندها جاء الماضي الراعب بكل ضجيجه. ولأول مرة منذ عشرين سنة تذكر ما حدث بالتفاصيل، وكأنه يعيش مرة أخرى.

صباح الأربعاء، ٢١ نيسان، عام ١٩٤٨.

كانت حيفا مدينة لا تتوقع شيئاً، رغم أنها كانت محكومة بتوتر غامض.

وفجأة جاء القصف من الشرق، من تلال الكرمل العالية. ومضت قذائف المورتَر تطير عبر وسط المدينة لتصب في الأحياء العربية. وانقلبت شوارع حيفا إلى فوضى، واكتسح الرعب المدينة التي أغلقت حوانيتها ونوافذ بيوتها.

كان سعيد. س في قلب المدينة، حين بدأت أصوات الرصاص والمتفجرات تملأ سماء حيفا، كان قد ظل حتى الظهر غير متوقع أن يكون ذلك هو الهجوم الشامل، وعندها فقط حاول للوهلة الأولى أن يعود إلى البيت بسيارته. إلا إنه ما لبث أن اكتشف استحالة ذلك، فمضى عبر شوارع فرعية محاولاً اجتياز الطريق إلى الحليصة حيث يقع منزله، إلا إن القتال كان قد اتسع، وصار يرى الرجال المسلحين يندفعون من الشوارع الفرعية إلى الرئيسية وبالعكس، وكانت تحركاتهم تسير وَفق توجيهات بمكبرات الصوت تنبثق هنا وهناك. وبعد لحظات شعر سعيد أنه يندفع دونما اتجاه، وأن الأزقة المغلقة

بالمتاريس أو بالرصاص أو بالجنود إنما تدفعه دون أن يحس، نحو اتجاه وحيد، وفي كل مرة كان يحاول العودة إلى وجهته الرئيسية، منتقياً أحد الأزقة، كان يجد نفسه كأنما بقوة غير مرئية يرتد إلى طريق واحد، ذلك هو المتجه نحو الساحل.

كان قد تزوج قبل عام وأربعة أشهر من صفية، واستأجر بيته الصغير في تلك المنطقة التي حسب أنها ستكون أوفر أمناً، وفجأة يشعر الآن بأنه لا يستطيع الوصول إليه.. كان يعرف أن زوجته الصغيرة لا تستطيع أن تتدبر أمرها، فمنذ أن جاء بها من الريف لم تعتد أن تقبل العيش في المدينة الكبيرة، أو أن تُكيف نفسها مع ذلك التعقيد الذي كان يبدو راعباً لها، وغير قابل للحل، تُرى ما الذي يمكن أن يحدث لها الآن؟

كان ضائعاً، تقريباً، ولم يكن يعرف على وجه التعيين أين يحدث القتال وكيف، وفي كل حدود علمه أن الإنكليز كانوا ما زالوا يسيطرون على المدينة، وأن الأحداث في شكلها النهائي كان مقدراً لها أن تقع بعد ثلاثة أسابيع تقريباً، حين يشرع البريطانيون في الانسحاب حسب الموعد الذي حددوه.

ولكنه فيما كان يسارع الخطو كان يعرف تماماً أن عليه أن يتجنب المناطق المرتفعة المتصلة بشارع هرتزل، حيث كان اليهود

يتمركزون منذ البدء، ومن ناحية أخرى كان عليه أن يبتعد عن المركز التجاري الذي يقع بين حارة الحليصة وبين شارع أللنبي، فقد كان ذلك المركز نقطة القوة في السلاح اليهودي.

وهكذا اندفع محاولاً الدوران حول المركز التجاري كي يصل إلى الحليصة، وكانت أمامه طريق تنتهي بوادي النِّسناس، وتمر عبر المدينة القديمة.

وفجأة اختلطت عليه الأمور وتشابكت الأسماء: الحليصة، وادي رشمَيّا، البرج، المدينة القديمة، وادي النِّسناس، شعر أنه ضائع تماماً، وأنه فقد وجهة سيره. كان القصف قد اشتد، ورغم أنه كان بعيداً بعض الشيء عن مراكز الإطلاق إلا إنه استطاع أن يميز جنوداً بريطانيين يسدون بعض المنافذ ويفتحون منافذ أخرى.

ويبدو أنه، بصورة ما، وجد نفسه في المدينة القديمة، ومنها اندفع كأنما بقوة لا يعرفها، نحو جنوب شارع ستانتون، وكان يعرف الآن أنه يبعد أقل من مئتي متر عن شارع الحلول، وبدأ يشم رائحة البحر.

وعندها فقط تذكر خلدون الصغير، ابنه الذي أتم في ذلك اليوم بالذات شهره الخامس، وانتابه فجأة قلق غامض. ذلك هو الشيء الوحيد الذي ما زال يحس طعمه تحت لسانه، حتى في

هذه اللحظات التي تبعد عشرين سنة عن المرة الأولى التي حدث فيها ذلك.

هل كان يتوقع تلك الفجيعة؟ الأمور هنا تختلط. الماضي يتداخل مع الحاضر، وهما يتداخلان مع أفكار وأوهام وتخيلات ومشاعر عشرين سنة لاحقة، هل كان يعرف؟ هل أحس ذلك الشيء الفاجع قبل أن يحدث؟ أحياناً يقول لنفسه: بلى، عرفت ذلك قبل أن يحدث، وأحياناً أخرى يقول لنفسه: لا. أنا أتصور ذلك بعد أن حدث، لم يكن من الممكن أن أتوقع شيئاً مروعاً من ذلك النوع.

كان المساء قد بدأ يخيم على المدينة، ليس يدري كم من الساعات أمضى وهو يركض في شوارعها، مرتداً عن شارع إلى شارع، أما الآن فقد بات واضحاً أنهم يدفعونه نحو الميناء، فقد كانت الأزقة المتفرعة عن الشارع الرئيسي مغلقة تماماً، وكان إذ يحاول الاندفاع في أحدها ليتدبر أمر عودته إلى بيته، يزجرونه بعنف، أحياناً بفوهات البنادق وأحياناً بحرابها.

كانت السماء ناراً تتدفق بأصوات رصاص وقنابل وقصف بعيد وقريب، وكأنما هذه الأصوات نفسها كانت تدفعهم نحو الميناء. ورغم أنه كان غير قادر على التركيز على أيما أمر معين، إلا إنه رأى كيف بدأ الزحام يتكاثف مع كل خطوة. كان الناس يتدفقون من

الشوارع الفرعية نحو ذلك الشارع الرئيسي المتجه إلى الميناء، رجالاً ونساءً وأطفالاً، يحملون أشياء صغيرة أو لا يحملون، يبكون أو يسبحون داخل ذلك الذهول الصارخ بصمت كسيح. وضاع بين أمواج البشر المتدفقة وفقد القدرة على التحكم بخطواته. إنه ما يزال يذكر كيف أنه كان يتجه نحو البحر وكأنه محمول وسط الزحام الباكي، المذهول، غير قادر على التفكير في أي شيء، وفي رأسه كان ثمة صورة واحدة معلقة كأنما على جدار: زوجته صفية وابنه خلدون.

لقد مضت اللحظات بطيئة وقاسية وتبدو الآن مجرد كابوس ثقيل لا يصدق. اجتاز البوابة الحديدية للميناء حيث كان جنود بريطانيون يزجرون الناس، ومن هناك رأى أكوام البشر تتساقط فوق الزوارق الصغيرة المنتظرة في الماء قرب الرصيف، ودون أن يعرف ماذا يجب عليه أن يفعل، قرر ألا يصل إلى الزوارق وفجأة –كمن أصيب بالجنون، أو كمن عاد إليه عقله دفعة واحدة بعد جنون طويل – استدار وسط الزحام، وأخذ يدافعه محاولاً بكل ما فيه من قوة مستنزفة أن يشق طريقه وسطه، عكسه، نحو البوابة الحديدية.

مثل من يسبح ضد سيل هادر ينحدر من جبل شديد العلو أخذ سعيد يشق طريقه بكتفيه وذراعيه وساقيه ورأسه. يجره التيار خطوات إلى الوراء، فيعود ويتقدم مندفعاً بشيء من الوحشية، مثل

حيوان طريد يشق طريقاً مستحيلاً في دغل كثيف متشابك. وفوقه كان الدخان والعويل ودوي القنابل وزخات الرصاص تمتزج أصواتها بالصراخ وهدير البحر وزحف الخطوات الضائعة وضرب المجاذيف سطح الموج..

هل حقاً مضى على ذلك كله عشرون سنة؟

كان العرق يتصبب بارداً على جبين سعيد وهو يقود سيارته صاعداً المنحدر. لقد حسب أن تلك الذاكرة لن تعود بهذا الصخب المجنون الذي لم يكن لها إلا لحظات حدوثها. ومن طرفيّ عينيه نظر إلى زوجته: كان وجهها مشدوداً أميل إلى الاصفرار، وكانت عيناها تتدفقان بالدموع، لا ريب أنها - قال لنفسه - تستعيد خطواتها ذلك اليوم ذاته، حين كان هو أقرب ما يكون إلى البحر، وكانت هي أقرب ما تكون إلى الجبل، وبينهما يمد الرعب والضياع خيوطهما غير المرئية، فوق مستنقع من الصراخ والخوف والمجهول.

كانت - كما قالت له أكثر من مرة في السنوات الماضية - تفكر به. وحين دوى الرصاص وانطلق الناس يقولون إن الإنكليز واليهود أخذوا يكتسحون حيفا، راودها خوف يائس.

كانت تفكر به، عندما جاءت أصوات الحرب من وسط المدينة حيث تعرف أنه هناك. وكانت تشعر أنها أكثر أمناً، فالتزمت البيت

فترة، وحين طال غيابه، هرعت إلى الطريق دون أن تدري على وجه التحديد ما الذي كانت تريده. في البدء كانت تطل من الشباك، ومن الشرفة. وكأنها شعرت الآن أن الأمر قد تغير تماماً، إذ بدأت النار تنهمر بغزارة، بدءاً من الظهر، من التلال الواقعة فوق الحليصة. وأحست أنها محاصرة كلياً، وعندها فقط أخذت تعدو نازلة الدرج، واندفعت على طول الطريق نحو الشارع الرئيسي، وكان استعجالها لرؤيته قادماً يختصر خوفها عليه وقلقها من المصير المجهول الذي كان يحمل ألف احتمال مع كل رصاصة تطلق. وحين وصلت إلى أول الطريق أخذت ترقب السيارات المندفعه بسرعة، وقادتها خطواتها من سيارة إلى أخرى، ومن رجل إلى آخر، تسأل دون أن تحصل على جواب. وفجأه رأت نفسها في موج الناس، يدفعونها، وهم يندفعون من شتى أرجاء المدينة، في سيلهم العرم الجبار الذي لا يمكن رده، كأنها محمولة على نهر متدفق مثل عود من القش.

كم مضى من الوقت قبل أن تتذكر أن خلدون الطفل ما زال في سريره في الحليصة؟

ليست تتذكر تماماً، ولكنها تعرف أن قوة لا تصدق سمّرتها في الأرض، فيما أخذ السيل الذي لا ينتهي من الناس يمر حولها ويتدافع

على جانبي كتفيها وكأنها شجرة انبثقت فجأة في مجرى سيل هائل من الماء، وارتدت هي الأخرى تدافع ذلك السيل بكل قوتها. وأمام عجزها وتعبها أخذت تصرخ بكل ما في حنجرتها من قوة. ولم تكن كلماتها الطائرة فوق ذلك الزحام الذي لا ينتهي لتصل إلى أي أُذن. لقد رددت كلمة خلدون ألف مرة، مليون مرة، وظلت شهوراً بعد ذلك تحمل في فمها صوتاً مبحوحاً مجرحاً لا يكاد يسمع. وظلت كلمة خلدون نقطة واحدة لا غير، تعوم ضائعة وسط ذلك التدافق اللانهائي من الأصوات والأسماء.

وكانت على وشك السقوط وسط الأقدام حين سمعت كمن يحلم صوتاً ينبثق من الأرض، ويناديها باسمها. وحين رأت وجهه وراءها يتفصد بالعرق والغضب والإرهاق أحست هول الفاجعة أكثر من أي وقت مضى، واكتسحها حزن يشبه الطعنة التي ملأتها بطاقة من العزم لا حدود لها، وقررت أن تعود بأي ثمن. ولربما أحست بأنها لن تستطيع إلى الأبد النظر إلى عيني سعيد، أو تركه يلمسها. وفي أعماقها شعرت أنها على وشك أن تفقد الاثنين معاً: سعيد وخلدون.. فمضت تشق طريقها بكل ما في ذراعيها من قوة وسط الغاب الذي كان يسد في وجهها طريق العودة، محاولة في الوقت نفسه أن تُضيّع سعيد، الذي أخذ – دون أن يعي–ينادي صفية تارة،

ويناديِ خلدون تارة أخرى..

هل مضت أجيال وأزمنة قبل أن تحس بكفيه القويتين المتيبستين تشدان على ذراعيها؟

وفجأة نظرت في عينيه، وأحست بشيء يشبه الشلل يسقطها على كتفه كخرقة بالية لا قيمة لها، وحولهما مضت سيول البشر تتقاذفهما من جهة إلى أخرى، وتدفعهما أمامها نحو الشاطئ، ولكنهما لم يكونا، بعد، قادرين على الإحساس بأي شيء، وفقط حين عومهما الرذاذ المتطاير من تحت خشب المجاذيف، ونظرا إلى الشاطئ حيث كانت حيفا تغيم وراء غبش المساء وغبش الدموع...

طوال الطريق، من رام الله إلى القدس إلى حيفا ظل يتحدث عن كل شيء، لم يكف قط عن الحديث، ولكنه حين وصل إلى أول بيت غاليم ربط الصمت لسانه. وها هو الآن في الحليصة، يسمع أصوات عجلات سيارته تسير مثلما كانت دائماً. وكان النبض الصعب لقلبه المتوثب يضيعه بين الفينة والأخرى. لقد تضاءلت عشرون سنة من الغياب، وها هي الأمور تعود فجأة عودة لا تصدق، وراء ظهر العقل والمنطق... تراه عما يبحث؟

قبل أسبوع قالت له صفية، وهما في منزلهما في رام الله:

– إنهم يذهبون إلى كل مكان، ألا نذهب إلى حيفا؟

وكان، عندها، يتناول عشاءه، ورأى يده تقف تلقائياً بين الصحن وبين فمه. ونظر نحوها بعد برهة فرآها تستدير، كي لا يقرأ شيئاً في عينيها، ثم قال لها:

– نذهب إلى حيفا.. لماذا؟

وجاءه صوتها خافتاً:

– نرى بيتنا هناك. فقط نراه.

وأعاد لقمته إلى الصحن وقام فوقف أمامها. كان رأسها يتكىء على صدرها كمن يريد أن يعترف بذنب غير متوقع. فوضع أصابعه تحت ذقنها ورفع رأسها فإذا بعينيها تنضحان بدموع غزيرة، فسألها بحنو:

– صفية.. بماذا تفكرين؟

وهزّت رأسها موافقة دون أن تقول شيئاً، فقد عرفت أنه يعرف، وربما كان هو الآخر يفكر طول الوقت بذلك وينتظرها أن تبادئ كي لا تشعر بأنها – كما كانت تشعر دائماً- هي التي ارتكبت تلك الفجيعة التي شجّرت في قلبيهما معاً، فهمس بصوت مبحوح:

– خلدون؟

واكتشف على التوّ أن ذلك الاسم لم يلفظ قط في تلك الغرفة منذ زمن طويل، وأنهما في المرات القليلة التي تحدثا عنه كانا يقولان هو، بل إنهما تجنّبا تسمية أي من ولديهما ذلك الاسم، وإن كانا قد أطلقا على أكبرهما اسم خالد، وعلى البنت التي أنجباها بعد ذلك بعام ونصف خالدة، بل إن ولديهما لم يعرفا قط أن لهما أخاً

اسمه خلدون، وهو نفسه ينادونه أبا خالد، وأصدقاؤه القدامى اتفقوا على القول بأن خلدون قد مات. فكيف يمكن للأمور أن تندفع من الباب الخلفي على هذه الصورة الفريده؟

وظلّ سعيد واقفاً هناك وكأنه نائم في مكان بعيد، إلا إنه التقط نفسه بعد هنيهة، وأخذ يخطو عائداً إلى طاولته، وقبل أن يجلس قال لها:

– أوهام يا صفية أوهام! لا تتركي لنفسك أن تخدعك على هذه الصورة المحزنة. أنت تعرفين كم سألنا وكم حققنا، وتعرفين قصص الصليب الأحمر، ورجال الهدنة، والأصدقاء الأجانب الذين بعثناهم إلى هناك. لا، لا أريد الذهاب إلى حيفا، إن ذلك ذل، وهو إن كان ذلاً واحداً لأهل حيفا فبالنسبة لي ولك هو ذلآن، لماذا نعذب أنفسنا؟

وأخذ صوت نشيجها يعلو شيئاً فشيئاً، ولكنها التزمت الصمت، وأمضيا تلك الليلة دونما كلمة، يستمعان معاً إلى أصوات الأحذية العسكرية تقرع الطرق، وإلى الراديو يظل يعطي الأوامر.

وحين مضى إلى فراشه كان يعرف – في أعماقه – أن لا فرار، وأن الفكرة التي كانت هناك طوال عشرين سنة قد ولدت، ولا سبيل إلى دفنها من جديد. ورغم أنه كان يعرف أن زوجته لم تنم، وأنها

أمضت كل ذلك الليل تفكر في الأمر نفسه، إلا إنه لم يبادلها أية كلمة، وفي الصباح قالت له بهدوء:

– إذا أردت أن تذهب فخذني معك، لا تحاول يا سعيد أن تذهب وحدك.

إنه يعرف صفية جيداً، ويعرف أنها تدرك تماماً كل فكرة تعبر رأسه. وهذه المرة أيضاً قاطعته وهو في منتصف الطريق، فقد قرر في الليل أن يذهب وحده، وها هي تكتشف قراره من تلقائها، وتمنعه.

وظل الأمر كله معلقاً في سقف أيامهما ولياليهما طوال أسبوع. يأكلانه مع طعامهما ويعلكانه وينامان معه، ولكنهما لم يتكلما حوله أبداً، وليلة أمس فقط قال لها:

– لنذهب غداً إلى حيفا، نتفرج عليها على الأقل، وقد نمر قرب بيتنا هناك. أنا أعرف أنهم سيصدرون قريباً قراراً يمنع ذلك كله. فحساباتهم لم تكن صحيحة.

وصمت قليلاً، وليس يـدري إن كان راغباً حقاً في تغيير الموضوع، إذ سمع نفسه يمضي في كلام آخر:

– في القدس ونابلس وهنا يتحدث الناس كل يوم عن نتائج زياراتهم إلى يافا وعكا وتل أبيب وحيفا وصفد وقرى الجليل

والمثلث. كلهم يقولون كلاماً متشابهاً، ويبدو أن أفكار كل منهم كانت أحسن مما رأوا بأم أعينهم. جميعهم عادوا يحملون خيبة كبيرة. إن المعجزة التي يتحدث عنها اليهود لم تكن إلا وهماً. في البلد هنا ردة فعل سيئة جداً، وهو عكس ما أرادوه حين فتحوا حدودهم أمامنا. لذلك فأنا أتوقع يا صفية أن يلغوا ذلك القرار قريباً جداً، وهكذا قلت لنفسي لماذا لا نقتنص الفرصة ونذهب؟

وحين نظر إلى صفية رآها ترتجف، وشهد وجهها يميل بوضوح للاصفرار، فخرج من الغرفة، إذ أحس هو الآخر بدموع حارقة تسد حلقه. ومنذ تلك اللحظة لم يكف اسم خلدون عن الدق في رأسه، تماماً مثلما كان قبل عشرين سنة حين سمعه يدق المرة تلو الأخرى فوق الزحام المتدفق أمام مياه الميناء الباكية. ولا شك أنه كان كذلك بالنسبة لصفية، وقد تحدثا طوال الطريق عن كل شيء، إلا عن خلدون. وقرب بيت غاليم فقط التزما الصمت، وها هما الآن ينظران صامتين إلى الطرق التي يعرفانها جيداً والملتصقة في رأسيهما كقطع من لحمهما وعظامهما.

ومثلما كان يفعل قبل عشرين سنة تماماً خفف سرعة سيارته إلى حدها الأدنى قبل أن يصل إلى ذلك المنعطف، الذي يعرف أن سفحاً صعباً يكمن وراءه. وانعطف بسيارته كما كان يفعل دائماً

وتسلق السفح محتفظاً بالموقع الصحيح في الطريق الذي أخذ يضيق. وكانت أشجار السرو الثلاث التي تنحني قليلاً فوق الشارع قد مدت أغصاناً جديدةً، ورغب أن يتوقف لحظة كي يقرأ على جذوعها أسماء محفورة منذ زمن، ويكاد يتذكرها واحداً واحداً، ولكنه لم يفعل. وليس يدري كيف حدث الأمر، ولكنه بصورة ما تذكر، حين مر قرب باب يعرفه، شخصاً من بيت الخوري كان يسكن هناك، وكانت عائلته تمتلك بناية كبيرة جنوب طريق ستانتون، قرب شارع الملوك. وفي تلك البناية – يوم الفرار – تمترس المقاتلون العرب وقاتلوا حتى آخر رصاصة وربما آخر رجل. وقد مر قرب تلك البناية حين كان يندفع نحو الميناء بقوة تفوقه مقدرة، وتذكر الآن بالضبط أنه هناك، وهناك فقط، سقطت عليه الذاكرة كما لو أنه ضُرب بحجر، وهناك بالضبط تذكر خلدون وانقبض قلبه يومها، قبل عشرين سنة، وما زال، والآن يزداد نبضه قوة حتى كاد أن يسمعه.

وفجأة أطل المنزل، المنزل ذاته، ذلك الذي عاش فيه، ثم عيشه في ذاكرته طويلاً، وها هو الآن يطل بمقدمة شرفاته المطلية باللون الأصفر.

ولوهلة خيل إليه أن صفية شابة وذات شعر مجدل طويل، ستطل عليه من هناك. كان حبلاً جديداً للغسيل قد دق على وتدين

خارج الشرفة، وتدلت منه قطع بيضاء وحمراء لغسيل جديد. وفجأة أخذت صفية تبكي بصوت مسموع، أما هو فقد انحرف إلى اليمين، وترك عجلات سيارته تصعد الرصيف الواطئ. ثم أوقف السيارة في المكان الذي لها، كما كان يفعل – تماماً –منذ عشرين سنة!

تردد سعيد. س هنيهة فقط وهو يطفئ محرك سيارته، ولكنه كان يعرف في أعماقه أنه لو ترك نفسه يتردد فترة أطول لانتهى الأمر، ولعاد فحرك سيارته عائداً أدراجه. وهكذا جعل الأمر، لنفسه ولزوجته، يبدو طبيعياً للغاية، كما لو أن العشرين سنة الماضية وضعت بين مكبسين جبارين وسحقت حتى صارت ورقة شفافة لا تكاد ترى. نزل من السيارة وصفق وراءه بابها، وأخذ يرفع حزامه وهو ينظر نحو الشرفة تاركاً المفاتيح تخشخش في راحته دونما اكتراث.

ودارت زوجته حول السيارة ووقفت إلى جانبه، إلا إنها لم تكن بارعة مثله. أمسك بذراعها، وأخذ يقطع بها الشارع، الرصيف، البوابة الحديدية الخضراء، الدرج.

وبدآ يصعدان، دون أن يترك لنفسه أو لها فرصة النظر إلى الأشياء الصغيرة التي كان يعرف أنها ستخضه وتفقده اتزانه: الجرس، ولاقطة الباب النحاسية، وخربشات أقلام الرصاص على الحائط،

وصندوق الكهرباء، والدرجة الرابعة المكسورة من وسطها، وحاجز السلم المقوس الناعم الذي تنزلق عليه الكف، وشبابيك المصاطب ذات الحديد المتصالب، والطابق الأول حيث كان يعيش محجوب السعدي، وحيث كان الباب يظل موارباً دائماً، والأطفال يلعبون أمام الدار دائماً، ويملأون الدرج صراخاً، إلى الباب الخشبي المغلق، المدهون حديثاً، والمغلق بإحكام.

وضع أصبعه على الدرج وهو يقول بصوت خافت لصفية:

– غيّروا الجرس.

وسكت قليلاً ثم تابع:

– والاسم طبعاً!

واغتصب ابتسامة غبية، وشدّ يده فوق يدها وأحس بها باردة ترتجف، ووراء الباب سمعا صوت خطوات تجر نفسها ببطء، وقال لنفسه: شخص عجوز بلا شك، وقرقع المزلاج بصوت مكتوم، وببطء انفتح الباب.

ها هي ذي، ليس يدري إن قال ذلك بصوت مسموع، أو قاله لنفسه كمن يتنفس الصعداء. ولكنه ظل واقفاً مكانه لا يعرف ماذا يتوجب عليه أن يقول. ولام نفسه لكونه لم يحضر جملة يبدأ بها رغم أنه فكر طويلاً في أن لحظة كهذه لا بد آتية، وتحرك في مكانه

ناظراً إلى صفية كمن يستنجد. فتقدمت أم خالد خطوة إلى الأمام وقالت:

– هل نستطيع أن ندخل؟

ولم تفهم المرأة العجوز، السمينة بعض الشيء، والقصيرة، والتي كانت تلبس ثوباً أزرق منقّطاً بكريات بيضاء. فأخذ سعيد يترجم إلى الإنكليزية، وعندها انفرجت أسارير العجوز المتسائلة، ووسعت من الطريق حتى دخلا، ثم أخذت تسير أمامهما نحو غرفة الجلوس.

وتبعها سعيد، وبجانبه صفية، بخطوات مترددة بطيئة، وأخذا يميزان الأشياء بشيء من الدهشة. لقد بدا له المدخل أصغر قليلاً مما تصوره وأكثر رطوبة، واستطاع أن يرى أشياء كثيرة اعتبرها ذات يوم، وما يزال، أشياءه الحميمة الخاصة التي تصورها دائماً ملكية غامضة مقدسة لم يستطع أي كان أن يتعرف عليها أو أن يلمسها أو أن يراها حقاً. ثمة صورة للقدس يتذكرها جيداً ما تزال معلقة حيث كانت، حين كان يعيش هنا. وعلى الجدار المقابل سجادة شامية صغيرة كانت دائماً هناك أيضاً.

وأخذ يخطو ناظراً حواليه، مكتشفاً الأمور شيئاً فشيئاً، أو دفعة واحدة، كمن يصحو من إغماء طويل. وحين صارا في غرفة الجلوس،

استطاع أن يرى مقعدين من أصل خمسة مقاعد هما من الطقم الذي كان له. أما المقاعد الثلاثة الأخرى فقد كانت جديدة، وبدت هناك فظة وغير مُتّسقة مع الأثاث. وفي الوسط كانت الطاولة المرصعة بالصدف هي نفسها، وإن كان لونها قد صار باهتاً، وفوقها استبدلت المزهرية الزجاجية بأخرى مصنوعة من الخشب، وفيها تكومت أعواد من ريش الطاووس، كان يعرف أنها سبعة أعواد. وحاول أن يعدها وهو جالس مكانه إلا إنه لم يستطع، فقام واقترب من المزهرية وأخذ يعدها واحدة واحدة، كانت خمسة فقط.

وحين استدار عائداً إلى مكانه، رأى أن الستائر قد تغيرت، وأن تلك التي اشتغلتها صفية، قبل عشرين سنة، بالصنارة، من الخيوط السكرية اللون، قد اختفت من هناك، واستبدلت بستائر ذات خطوط زرقاء متطاولة.

ثم وقع بصره على صفية، فرآها محتارة، تنقب بعينيها في زوايا الغرفة وكأنها تعد الأشياء التي تفتقدها، وكانت المرأة السمينة العجوز تجلس أمامهما على ذراع أحد المقاعد، تنظر إليهما وهي تبتسم ابتسامة لا معنى لها، وأخيراً قالت دون أن تجعل تلك الابتسامة تفتر:

– منذ زمن طويل وأنا أتوقعكما.

كانت لغتها الإنكليزية بطيئة، وذات لكنة أقرب إلى الألمانية، وتبدو، إذ تتلفظ بها، كما لو أنها تنتشل كلماتها من بئر غبار سحيقة الغور.

وانحنى سعيد إلى الأمام وسألها:

– هل تعرفين من نحن؟

وهزت رأسها بالإيجاب عدة مرات لتزيد الأمر تأكيداً، وفكرت قليلاً كي تنتقي كلماتها، ثم قالت ببطء:

– أنتما أصحاب هذا البيت، وأنا أعرف ذلك.

– كيف تعرفين؟

جاء السؤال من سعيد وصفية في وقت واحد.

وزادت العجوز في ابتسامتها. ثم قالت:

– من كل شيء. من الصور، من الطريقة التي وقفتما بها أمام الباب. والصحيح أنه منذ انتهت الحرب جاء الكثيرون إلى هنا وأخذوا ينظرون إلى البيوت ويدخلونها، وكنت أقول كل يوم إنكما ستأتيان لا شك.

وفجأة بدت محتارة، وأخذت تنظر حواليها، إلى الأشياء الموزعة في الغرفة وكأنها تراها لأول مرة، ودون أن يقصد أخذ سعيد ينظر إلى حيث تنظر، وينقل بصره حيث تنقل بصرها، وفعلت صفية

الشيء ذاته، وقال سعيد لنفسه: يا للغرابة! ثلاثة أزواج من العيون تنظر إلى شيء واحد... ثم كم تراه مختلفاً!

وسمع صوت العجوز، وقد صار الآن خافتاً وأشد بطئاً:

– أنا آسفة، ولكن ذلك كان ما حدث. لم أفكر قط بالأمر كما هو الآن.

وابتسم سعيد بمرارة، ولم يعرف كيف يقول لها أنه لم يأت من أجل هذا، وأنه لن يشرع في نقاش سياسي، وأنه يعرف أن لا ذنب لها.

لا ذنب لها؟

لا، ليس بالضبط! كيف يشرح لها ذلك؟

إلا إن صفية وفرت عليه همّه، إذ سألت بصوت بدا بريئاً بصورة مريبة، فيما أخذ هو يترجم:

– من أين جئت؟

– من بولونيا.

– متى؟

– في سنة ١٩٤٨.

– متى بالضبط؟

– أول آذار، ١٩٤٨.

وخيم صمت ثقيل، وأخذوا جميعاً ينظرون إلى حيث لم يكن من المهم لهم أن ينظروا، وقطع سعيد الصمت قائلاً بهدوء:

– طبعاً نحن لم نجئ لنقول لك أخرجي من هنا، ذلك يحتاج إلى حرب...

وشدّت صفية على يده، كي لا يمضي في الحديث فانتبه، وعاد يحاول الكلام مقترباً من الموضوع:

– أقصد أن وجودك هنا، في هذا البيت، بيتنا نحن، بيتنا أنا وصفية، هو موضوع آخر، جئنا فقط ننظر إلى الأشياء، هذه الأشياء لنا، ربما كان بوسعك أن تفهمي ذلك.

فقالت بسرعة:

– أفهم، ولكن...

وفجأة فقد أعصابه:

– نعم، ولكن! هذه الـ «لكن» الرهيبة، المميتة، الدامية...

وسكت تحت وطأة نظرات زوجته، وشعر بأنه لن ينجح أبداً في الوصول إلى مقصده. ثمّة ارتطام قدري لا يصدق، وغير قابل للتجاهل، وهذا الذي يجري هو مجرد حوار مستحيل.

وللحظة رغب في أن يقوم ويمضي، فلم يعد يهمه أيما شيء. ليكن خلدون ميتاً، أو حياً، لا فرق، فحين تصل الأمور إلى هنا فليس

ثمة ما يمكن أن يقال. وانتابه غضب مهيض ومُرّ، وأحس أنه على وشك أن يتفجر من الداخل. وليس يدري كيف سقط نظره على تلك الريشات الخمس من ذيل الطاووس التي كانت مزروعة في الإناء الخشبي وسط الغرفة، ورآها تتحرك بألوانها الفذة الرائعة التي لا تصدق، مع هبوب نسمة من الهواء دخلت من النافذة المفتوحة. وفجأة سأل بفظاظة وهو يشير إلى المزهرية:

– كان هنا سبع ريشات، ماذا حدث للريشتين المفقودتين؟

ونظرت العجوز إلى حيث أشار، وعادت فنظرت إليه متسائلة، وكان ما يزال يمد ذراعه باتجاه المزهرية ويحدق فيها مطالباً بالجواب، وكان الكون كله يقف على رأس لسانها. نهضت من مكانها واقتربت نحو المزهرية وأمسكتها كما لو أنها تفعل ذلك لأول مرة، ثم قالت ببطء:

– لست أدري أين ذهبت الريشتان اللتان تتحدث عنهما، ذلك شيء لا أستطيع أن أتذكره، ربما كان دوف قد لعب بهما وضيعهما بعد ذلك، حين كان صغيراً.

– دوف؟

قالاها معاً، سعيد وصفية، ووقفا وكأن الأرض قذفتهما إلى فوق، وأخذا، متوترين، ينظران نحوها، فمضت تقول:

– أجل دوف، ولست أدري ماذا كان اسمه، وإن كان يهمك الأمر، فهو يشبهك كثيراً...

الآن، بعد ساعتين من حديث متقطع، يمكن إعادة ترتيب الأمور من جديد: إذن ماذا حدث في تلك الأيام القليلة التي امتدت بين ليل الأربعاء، ٢١ نيسان ١٩٤٨ حين غادر سعيد س. حيفا على متن زورق بريطاني دُفع إليه دفعاً مع زوجته، وقذفه بعد ساعة على شاطئ عكا الفضي، وبين يوم الخميس ٢٩ نيسان ١٩٤٨، حين فتح رجل من الهاغاناه، معه رجل عجوز له وجه يشبه الدجاجة، باب منزل سعيد س. في الحليصة، ووسع الطريق أمام إفرات كوشن وزوجته، القادمين من بولونيا، ليدخلا إلى ما صار منذ ذلك اليوم منزلهما المستأجر من دائرة أملاك الغائبين في حيفا.

لقد وصل إفرات كوشن إلى حيفا، برعاية الوكالة اليهودية، قادماً إليها مع زوجته من ميناء ميلانو الإيطالي في وقت مبكر من شهر آذار. كان قد غادر وارسو مع قافلة صغيرة في أوائل تشرين

الثاني من عام ١٩٤٧، وأُسكن في منزل مؤقت يقع في ضواحي ذلك المرفأ الإيطالي الذي كان آنذاك يضج بحركة غير عادية، وفي أوائل آذار نقل بحراً مع عدد من الرجال والنساء إلى حيفا.

كانت أوراقه معدة تماماً، وحملته شاحنة صغيرة مع أشيائه القليلة عبر الميناء الصاخب، المليء بالجنود البريطانيين والعمال العرب والبضائع، عبر شوارع حيفا المتوترة، والتي كانت تدوّي فيها طلقات نارية متقطعة بين الفينة والأخرى، إلى الهادار، حيث أُسكن في غرفة صغيرة من بناء مزدحم بالسكان.

وتبين لإفرات كوشن، بعد فترة، أن جميع الغرف في البناء يشغلها مهاجرون جدد، ينتظرون هناك نقلهم إلى أمكنة أخرى فيما بعد، وليس يدري إن كانوا قد أطلقوا عليه اسم نزل المهاجرين وهم يلتقون كل ليلة لتناول العشاء، أم إن ذلك الاسم كان معروفاً قبلهم، وأنهم استعملوه فقط.

وربما كان قد نظر عدة مرات، من شرفته إلى الحليصة، إلا إنه لم يكن يعرف على الإطلاق، أو حتى يخمن، أنه سيجري إسكانه هناك. وفي الواقع فإنه كان يعتقد أنه حينما تُسوّى الأمور فسينقل إلى بيت ريفي هادئ على سفح تلة ما في الجليل: كان قد قرأ قصة **لصوص في الليل** لآرثر كوستلر حين كان في ميلان، أعاره

إياها رجل قادم من بريطانيا ليشرف على عملية التهجير، وعاش فترة من الزمن في تلك التلال الجليليّة التي جعلها كوستلر مسرحاً لروايته. وفي الحقيقة فإنه لم يكن ليعرف الكثير آنذاك عن فلسطين. وبالنسبة له كانت مجرد مسرح ملائم لأسطورة قديمة، ما يزال يحتفظ بنفس الديكور الذي كان يراه مرسوماً في الكتب الدينية المسيحية الملونة المخصصة لقراءات الأطفال في أوروبا. إلا إنه بالطبع لم يكن يصدق تماماً أن تلك الأرض كانت مجرد صحراء أعادت الوكالة اليهودية اكتشافها بعد ألفي سنة. ومع ذلك فلم يكن هذا هو أكثر ما كان يهمه آنذاك، وقد وضع في ذلك النزل، وكان هناك شيء اسمه الانتظار، وقد اعتنقه هماً يومياً مثلما فعل بقية أولئك الذين كانوا معه.

وربما لأنه سمع أصوات الرصاص منذ أن خرج من ميناء حيفا في نهاية أول أسبوع من آذار ١٩٤٨، فإنه لم يفكر كثيراً في أن شيئاً مرعباً كان يحدث آنذاك، وهو – على كل حال – لم يقابل شخصاً عربياً في حياته كلها، بل إنه صادف أول عربي في حيفا نفسها بعد احتلالها بحوالي عام ونصف العام. وقد جعله ذلك الأمر يحتفظ طوال الأيام الحرجة بصورة فريدة وغامضة عما كان يجري حقاً. صورة أسطورية جاءت ملائمة تماماً لما كان يتصوره في وارسو وفي

ميلان طوال ٢٥ سنة من عمره، ولذلك كانت المعارك التي يسمع أصواتها ثم يقرأ أخبارها في «بالستاين بوست» كل صباح، إنما تجري بين بشر وبين أشباح، ليس إلا.

أين كان بالضبط يوم الأربعاء ٢١ نيسان ١٩٤٨، في الوقت الذي كان سعيد س. ضائعاً بين شارع أللنبي وحارة حُلول وكانت زوجته صفية تندفع من الحليصة نزولاً على حافة المركز التجاري باتجاه شارع ستانتون؟

لم يعد من الممكن الآن تذكر الأمر تماماً، بتفاصيله، ومع ذلك فإنه يذكر أن الهجوم الذي بدأ صباح الأربعاء ظل مستمراً حتى ليل الخميس، وصباح الجمعة فقط، ٢٣ نيسان ١٩٤٨، تأكد تماماً أن الأمر في حيفا قد انتهى، وأن الهاغاناه سيطرت على الموقف كلياً. وهو لم يعرف بالضبط ماذا حدث على وجه الدقة: لقد بدأ القصف من الهادار، وتكومت التفاصيل لديه من الراديو ومن أخبار القادمين بين الفينة والأخرى ممتزجة بصورة تستعصي على الاستيعاب. إلا إنه كان يعلم أن الهجوم الشامل الذي بدأ صباح الأربعاء قد انطلق من ثلاثة مراكز وأن الكولونيل موشيه كارماتيل كان يضع يده في تلك اللحظة على ثلاث كتائب يحركها من هادار هاكرمل ومن المركز التجاري، وأن واحدة من هذه الكتائب كان عليها أن تكتسح

الحليصة، فالجسر، فوادي رشميًا نحو المرفأ، في حين تضغط كتيبة أخرى من المركز التجاري لحصر الهاربين في ممر ضيق ينتهي إلى البحر. ولم يكن إفرات يعرف على وجه التحديد مواقع هذه الأمكنة التي حفظ أسماءها من فرط التكرار. وقد كان ثمة ارتباط ما بين كلمة إرغون وكلمة وادي النسناس، مما جعله يفهم أن العصابة تلك كانت مكلفة بالهجوم هناك.

ولم يكن إفرات كوشن بحاجة إلى من يؤكد له أن الإنكليز مهتمون بتسليم حيفا للهاغاناه، فقد كان بوسعه معرفة أنهم كانوا وما زالوا يقومون بدوريات مشتركة، وقد رأى ذلك بنفسه مرتين أو ثلاث مرات. ولا يذكر الآن كيف حصل على معلوماته عن دور البريغادير ستوكويل، إلا إن ذلك بالنسبة له كان مؤكداً، وكان الهمس يدور في كل زاوية من نزل المهاجرين أن البريغادير ستوكويل إنما يرمى بثقله مع الهاغاناه، وأنه في الحقيقة كتم الخبر عن موعد انسحابه ولم يسر به إلا للهاغاناه. فأعطاهم بذلك عنصر المفاجأة في اللحظة المناسبة، وذلك في وقت كان يحسب فيه العرب أن تخلي الجيش البريطاني عن السلطة إنما سيتم في وقت لاحق.

وظل طوال يومي الأربعاء والخميس في النزل، وكانوا كلهم قد تلقوا التعليمات بألا يغادروا المكان. ويوم الجمعة بدأ بعضهم

يخرجون، إلا إنه لم يخرج من النزل حتى صباح السبت. وأدهشه للوهلة الأولى أنه لم يجد سيارة. لقد كان سبتاً يهودياً حقيقياً. وابتعث ذلك شيئاً من الدموع في عينيه لسبب لا يستطيع تفسيره. وحين رأته زوجته كذلك فوجئ بها تقول له - والدموع في عينيها:

- إنني أبكي لشيء آخر، إنه سبت حقيقي، ولكن لم يعد ثمة جمعة حقيقية هنا، ولا أحد حقيقي.

ذلك كان مجرد البداية. فللمرة الأولى منذ جاء، وضعت زوجته أمامه باختصار شيئاً مقلقاً لم يكن يحسب حسابه ولم يفكر فيه. وفجأة أخذت آثار الدمار، التي بدأ يلاحظها، شكلاً جديداً ومعنى آخر، ولكنه رفض بينه وبين نفسه أن يجعل من ذلك مبعثاً جاداً للقلق، أو حتى للتفكير.

على أن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لميريام، زوجته، إذ إنها تغيرت تماماً ذلك اليوم، وجاء التغير حين شهدت، وهي تدور قرب كنيسة بيت لحم في الهادار، شابين من الهاغاناه يحملان شيئاً ويضعانه في شاحنة صغيرة كانت واقفة هناك، واستطاعت في لحظة كانخطاف البصر أن ترى ما يحملانه، فأمسكت بذراع زوجها وصاحت وهي ترتجف:

- انظر!

إلا إن زوجها، حين نظر حيث كانت تشير، لم يرَ شيئاً. كان الشابان يمسحان كفيهما على طرفي قميصيهما الخاكيين، وقالت زوجته:

– كان ذلك طفلاً عربياً ميتاً، وقد رأيته، مكسوّاً بالدم.

وأخذها زوجها إلى الرصيف الآخر وسألها:

– كيف عرفت أنه طفل عربي؟

– ألم ترَ كيف ألقوه في الشاحنة كأنه حطبة؟ لو كان يهودياً لما فعلوا ذلك.

وأراد أن يسألها لماذا، إلا إنه لحظ وجهها وصمت.

كانت ميريام قد فقدت والدها في أوشفيتز قبل ذلك بثماني سنوات. وقبل ذلك، حين دهموا المنزل الذي كانت تعيش فيه مع زوجها، ولم يكن عند ذاك فيه، التجأت إلى جيران كانوا يسكنون فوق منزلها. ولم يجد الجنود الألمان أحداً، إلا إنهم في طريق نزولهم على السلم صادفوا أخاها الصغير قادماً إليها، كان عمره عشر سنوات، وقد جاء آنذاك ليخبرها – أغلب الظن – أن والدها قد سيق إلى المعتقل وأنه الآن صار وحده. إلا إنه حين رأى الجنود الألمان استدار وأخذ يعدو هارباً. وقد استطاعت أن ترى ذلك عبر تلك الكوة الضيقة التي تتيحها المسافة الصغيرة المتروكة بين

مجموعة السلالم، ومن هناك شهدت كيف أطلق عليه الرصاص.



وحين عاد إفرات كوشن مع ميريام إلى نزل المهاجرين، كانت ميريام قد قررت العودة إلى إيطاليا. ولكنها لم تفلح طوال تلك الليلة، ولا في الأيام القليلة التي أعقبت ذلك اليوم، في إقناع زوجها بذلك، وكانت دائماً تخسر النقاش بسرعة، ولا تستطيع إيجاد الكلمات التي تعبر عن رأيها، وتشرح حقيقة دوافعها.

إلا إن الأمور عادت فتغيرت بعد ذلك بأسبوع واحد، فقد عاد زوجها من زيارة لمكتب الوكالة اليهودية في حيفا بخبرين مفرحين: لقد أُعطي بيتاً في حيفا نفسها، وأُعطي مع البيت طفلاً عمره خمسة شهور!

مساء يوم الخميس، ٢٢ نيسان ١٩٤٨، سمعت تورا زونشتاين المرأة التي كانت تسكن مع ابنها الصغير بعد أن طلقها زوجها، في الطابق الثالث، بالضبط فوق بيت سعيد س.، صوت بكاء طفل واهن منطلق من الطابق الثاني.

ورغم أنها لم تصدق في بادئ الأمر ما ذهبت إليه أفكارها، إلا

إنها تحركت من مكانها بعد أن استطال البكاء الواهن، ونزلت إلى الطابق الثاني وأخذت تقرع الباب.

وأخيراً اضطرت إلى تحطيم الباب، وكان الطفل في سريره منهكاً تماماً، فحملته إلى بيتها.

كانت تورا تحسب أن الأمور ستعود إلى ما كانت عليه بعد فترة وجيزة. إلا إن ذلك الحسبان ما لبث أن سقط بعد يومين اثنين، حين اكتشفت أن الأمر يختلف تماماً عما كانت تحسب. ولم يكن من المعقول الاستمرار بالاحتفاظ بالصبي، فحملته إلى الوكالة اليهودية في حيفا وهي تتصور أن شيئاً ما يمكن القيام به لحل تلك المشكلة.

وهكذا فقد كان من حظ إفرات كوشن أن جاء بعد ذلك بفترة وجيزة إلى مكتب الوكالة اليهودية، وحين تبين المسؤولون هناك من أوراقه أنه لم ينجب أولاداً، عرضوا عليه بيتاً في حيفا نفسها، كامتياز خاص، إن هو قبل بتبني الطفل.

ولم يكن هذا العرض إلا مفاجأة مدهشة لإفرات، الذي كان يتحرق لتبني طفل بعد أن تأكد كلياً من أن ميريام غير قادرة على الإنجاب. بل إنه مضى إلى حد اعتبار الأمر كله بمثابة هبة إلهية لا تكاد تصدق تأتي بخيراتها دفعة واحدة. إذ لا شك أن طفلاً يعطى لميريام سيجعلها تتغير تماماً، وتكف عن ذلك الشيء الغريب الذي

بات ينتاب أفكارها منذ رأت ذلك الطفل العربي القتيل يلقى في شاحنة الموت كقطعة خشب رخيصة.

وكان ذلك اليوم يوم خميس، الثلاثين من نيسان ١٩٤٨، عندما دخل إفـرات كوشن وزوجته ميريام برفقة موظف من الوكالة اليهودية له وجه يشبه الدجاجة، ويحمل طفلاً عمره خمسة شهور، إلى بيت سعيد س. في الحليصة.

أما سعيد س. وصفية فقد كانا في ذلك اليوم بالضبط يبكيان معاً، بعد أن عاد سعيد للمرة المئة فاشلاً، عاجزاً عن الدخول إلى حيفا، لينام بعد قليل مرهقاً ممزقاً شبه غائب عن الوعي من فرط التعب، في الغرفة التي كانت صفاً سادساً بمدرسة المعارف الثانوية، مقابل جدار السور الذي يحمي سجن عكا الشهير، على شاطئ البحر الغربي.

ولم يتناول سعيد س. قهوة ميريام، واكتفت صفية برشفة واحدة، تناولت معها قطعة من البسكوت المعلب كانت ميريام قد وضعته، دون أن تكف عن الابتسام، أمامهما.

وظل سعيد س. ينظر حواليه، وقد تضاعفت حيرته بعد أن استمع إلى قصة ميريام نُتفة وراء الأخرى، طوال زمن بدا له طويلاً، ولفترة ما ظلا، صفية وهو، جالسين على مقعديهما كأنهما سُمّرا

هناك، ينتظران شيئاً مجهولاً لا قدرة لهما على تصوره.

ومضت ميريام تذهب وتجيء. وحين كانت تغيب وراء الباب كانا يواصلان الاستماع إلى خطواتها البطيئة تجر نفسها جراً على البلاط، بل كان بوسع صفية حين تغمض عينيها قليلاً أن تتصور بالضبط كيف كانت ميريام تعبر الممر المؤدي إلى المطبخ، وعن يمينها كانت غرفة النوم، ومرة واحدة فقط سمعت اصطفاق الباب، فنظرت نحو زوجها وقالت له بمرارة:

– كأنها في بيتها! تتصرف وكأنه بيتها!

وابتسما بصمت، وعاد يشد راحتيه على بعضهما بين ركبتيه دون أن يستطيع التوصل إلى قرار، وأخيراً جاءت ميريام، فسألها:

– ومتى سيحضر؟

وقت أَوبته الآن، ولكنه قد يتأخر قليلاً. لم يلتزم طوال عمره بموعد لعودته إلى البيت، إنه مثل أبيه تماماً... كان..

وصمتت وهي تعض قليلاً على شفتها وتنظر نحو سعيد الذي أحس ببدنه يرتجف للحظة وكأن تياراً كهربائياً مسه. «مثل أبيه!» وفجأة سأل نفسه: ما هي الأبوة؟ وكان مثل من فتح مصراعي شباك أمام إعصار غير متوقع. فأخذ رأسه بين راحتيه وحاول أن يوقف ذلك الدوران المجنون للسؤال الذي كان كامناً في مكان ما من عقله

طوال عشرين سنة، دون أن يجرؤ على مواجهته، أما صفية فقد أخذت تربت على كتفه، لقد فهمت بصورة غريبة ذلك الارتطام الذي لا يصدق، والذي يمكن للكلمات أحياناً أن تفعله على حين فجأة، ثم قالت:

– انظر من الذي يتحدث! إنها تقول «مثل أبيه!» وكأن لخلدون أباً غيرك!

إلا إن ميريام تقدمت إلى الأمام، ووقفت معدة نفسها لتقول شيئاً صعباً. ثم ببطء أخذت تنتزع تلك الكلمات التي تبدو وكأن يداً ما تنتشلها من أعماق بئر محشو بالغبار:

– اسمع يا سيد سعيد. أريد أن أقول لك شيئاً مهماً، ولذلك أردتك أن تنتظر دوف، أو خلدون إن شئت، كي تتحدثا. وكي ينتهي الأمر كما تريد له الطبيعة أن ينتهي، أتعتقد أن الأمر لم يكن مشكلة لي كما كان مشكلة لك؟ طوال السنوات العشرين الماضية وأنا محتارة، والآن دعنا ننته من كل شيء. أنا أعرف أبوه، وأعرف أيضاً أنه ابننا، ومع ذلك لندعه يقرر بنفسه، لندعه يختار. لقد أصبح شاباً راشداً، وعلينا نحن الاثنين أن نعترف بأنه هو وحده صاحب الحق في أن يختار... أتوافق؟

وقام سعيد عن مقعده وأخذ يدور في أنحاء الغرفة، ثم وقف

أمام الطاولة المنقوشة بالصدف وسط الغرفة وأخذ، مرة أخرى، يعد ريشات الطاووس في المزهرية الخشبية الجاثمة هناك، إلا إنه لم يقل شيئاً. وظل صامتاً كأنه لم يسمع حرفاً. وكانت ميريام تنظر إليه متحفزة، وأخيراً التفت إلى صفية وشرح لها ما قالته ميريام، فقامت من مكانها ووقفت إلى جانبه، ثم قالت بصوت مرتجف:

– ذلك خيار عادل... وأنا واثقة أن خلدون سيختار والديه الحقيقيين. لا يمكن أن يتنكر لنداء الدم واللحم..

وفجأة أخذ سعيد يضحك بكل قوته، وكانت ضحكته تعبق بمرارة عميقة تشبه الخيبة:

– أي خلدون يا صفية؟ أي خلدون؟ أي لحم ودم تتحدثين عنهما؟ وأنت تقولين إنه خيار عادل! لقد علموه عشرين سنة كيف يكون. يوماً يوماً، ساعة ساعة، مع الأكل والشرب والفراش.. ثم تقولين: خيار عادل! إن خلدون، أو دوف، أو الشيطان إن شئت، لا يعرفنا! أتريدين رأيي؟ لنخرج من هنا ولنعد إلى الماضي. انتهى الأمر. سرقوه.

ونظر نحو صفية التي تهاوت في مقعدها وقد تلقت للمرة الأولى حقيقة الأمر دفعة واحدة، وبدا لها كلام زوجها صحيحاً تماماً، إلا إنها ظلت تحاول التعلق بخيوط غير مرئية لآمال بنتها في وهمها

عشرين سنة كنوع من الرشوة. وعاد زوجها يقول لها:

– ربما كان لا يعرف على الإطلاق أنه ولد من أبوين عربيين.. ربما عرف ذلك قبل شهر، أو أسبوع، أو سنة.. فماذا تعتقدين؟ إنه مخدوع، وقد يكون أكثر حماساً لها منهم.. لقد بدأت الجريمة قبل عشرين سنة، ولا بد من دفع الثمن.. بدأت يوم تركناه هنا.

– ولكننا لم نتركه. أنت تعرف.

– بلى. كان علينا ألا نترك شيئاً. خلدون، والمنزل، وحيفا! ألم يَنتبك ذلك الشعور الرهيب الذي انتابني وأنا أسوق سيارتي في شوارع حيفا؟ كنت أشعر أنني أعرفها وأنها تنكرني. وجاءني الشعور ذاته وأنا في البيت، هنا. هذا بيتنا! هل تتصورين ذلك؟ إنه ينكرنا! ألا ينتابك هذا الشعور! إنني أعتقد أن الأمر نفسه سيحدث مع خلدون وسترين!

وأخذت صفية تنشج ببؤس، فيما مضت ميريام إلى الخارج تاركة الغرفة التي ملأها فجأة توتر محسوس. وشعر سعيد بأن جميع الجدران التي عيّش نفسه طوال عشرين سنة داخلها قد تكسرت، وصار بوسعه أن يرى الأشياء أكثر وضوحاً، وانتظر لحظات حتى خف نشيج صفية، فاستدار نحوها وسألها:

– أتعرفين ما حدث لفارس اللبدة؟

– ابن اللبدة إياه؟ جارنا؟

أجل، جارنا في رام الله الذي سافر إلى الكويت. أتعرفين ماذا حدث له حين زار قبل أسبوع واحد منزله في يافا؟

– هل ذهب إلى يافا؟

– أجل. قبل أسبوع كما أعتقد، وقد استأجر سيارة من القدس أخذته إلى يافا. توجه فوراً إلى العجمي، كان يسكن قبل عشرين سنة في بيت من طابقين وراء المدرسة الأرثوذكسية في العجمي. تذكرين المدرسة؟ إنها وراء مدرسة الفرير، وأنت ذاهبة إلى الجبلية، إلى اليسار وبعدها بمئتي متر مدرسة الأرثوذكس على اليمين، ولها ملعب كبير، وبعد الملعب يوجد مفرق، وفي منتصف الزقاق كان فارس اللبدة يسكن مع عائلته. كان يغلي غضباً يومها، فأمر السائق بالوقوف أمام المنزل وصعد السلم درجتين ودق على باب منزله..

كان الوقت عصراً، وكانت يافا – فيما عدا المنشية – ما زالت على حالها، كما كان فارس اللبدة يعرفها قبل عشرين سنة. وشعر أن اللحظات القليلة التي مضت بين قرع الباب وبين سماعه لخطوات رجل قادم ليفتحه قد امتدت دهوراً من الغضب والحزن العاجز الكسيح. وأخيراً انفتح الباب، ومد الرجل الطويل القامة، الأسمر والذي كان يلبس قميصاً أبيض مفتوح الأزرار، مد يده ليصافح القادم الذي لا يعرفه. إلا إن فارس تجاهل الراحة الممدودة، وقال بالهدوء الذي يحمل كل معنى الغضب:

– جئت ألقي نظرة على بيتي. هذا المكان الذي تسكنه هو بيتي أنا، ووجودك فيه مهزلة محزنة ستنتهي ذات يوم بقوة السلاح. تستطيع إن شئت، أن تطلق عليّ الرصاص هذه اللحظة، ولكنه بيتي، وقد انتظرت عشرين سنة لأعود إليه.. وإذا...

وأخذ الرجل الواقف على عتبة الباب، والذي كان ما يزال يمد راحته، يضحك بقوة مقترباً من فارس اللبدة حتى صار أمامه مباشرة، وعندها تقدم بذراعين مفتوحتين نحوه واحتضنه..

– لا حاجة لتصب غضبك عليّ، فأنا عربي أيضاً، ويافاوي مثلك، وأعرفك. فأنت ابن اللبدة.. ادخل لنشرب قهوة!

ودخل فارس مشدوهاً، يكاد لا يصدق. وقد كان البيت هو نفسه، بأثاثه وترتيبه وألوان جدرانه وأشيائه التي يذكرها جيداً. واقتاده الرجل نحو غرفة الجلوس دون أن يقدر على إخفاء ابتسامته العريضة، وحين فتح بابها وطلب منه الدخول، وقف فارس مسمراً، ثم أخذت الدموع – فجأة – تطفر من عينيه!

كانت غرفة الجلوس على حالها، كأنه تركها ذلك الصباح، تعبق فيها نفس الرائحة التي كانت لها، رائحة البحر التي كانت دائماً تثير في رأسه دوامات من عوالم مجهولة معدة للاقتحام والتحدي، ولكن ذلك لم يكن الشيء الذي سمره في مكانه، فعلى الجدار المقابل، المطلي بلون أبيض متوهج، كانت صورة أخيه بدر ما تزال معلقة، وحدها في الغرفة كلها، وكان الشريط الأسود العريض الذي يمتد في زاويتها اليمنى ما زال كما كان.

وفجأة تدفق في الغرفة جو الحداد الذي كان، وأخذت الدموع

تكر على وجنتي فارس وهو واقف هناك. تلك أيام قديمة، إلا إنها تدفقت الآن كأن البوابات التي كانت تحبسها قد انفتحت على مصاريعها:

كان أخوه بدر أول من حمل السلاح في منطقة العجمي في الأسبوع الأول من كانون الأول عام ١٩٤٧، ومنذ ذاك تحول المنزل إلى ملتقى للشبان الذين كانوا يملأون ملعب الأرثوذكسية آنذاك بعد ظهر كل يوم. أما الآن فقد تغير كل شيء، وانخرط بدر في القتال، كأنه كان ينتظر ذلك اليوم منذ طفولته، وفي السادس من نيسان عام ١٩٤٨ جيء ببدر إلى الدار محمولاً على أكتاف رفاقه، كان مسدسه ما زال في وسطه، أما بندقيته فقد تمزقت مع جسده بقذيفة تلقاها وهو على طريق تل الريش. وشيعت العجمي جثمان بدر كما يتوجب على الرفاق أن يشيعوا الشهيد. ثم جيء بصورته مكبرة، وذهب رفيق من رفاقه إلى شارع اسكندر عوض حيث كتب خطاط هناك كان اسمه قطب يافطة صغيرة تقول إن بدر اللبدة استشهد في سبيل تحرير الوطن. وحمل طفل ما تلك اليافطة في مقدمة الجنازة، وحمل طفلان صورته، وفي المساء أعيدت الصورة إلى البيت، وربط شريط الحداد الأسود على زاويتها اليمنى.

إنه ما زال يذكر كيف رفعت أمه كل الصور التي كانت معلقة

على جدران غرفة الجلوس، وعلقت صورة بدر على الجدار الذي يقابل الباب. ومنذ تلك اللحظة فاحت في الغرفة رائحة الحداد الحزين، وظل الناس يأتون فيجلسون في الغرفة وينظرون إلى الصورة ويقدمون التعازي.

كان فـارس، من المكان الذي يقف فيه، يستطيع أن يرى المسامير التي كانت تحمل صوراً أخرى قبل عشرين سنة تطل برؤوسها من الجدران العارية. وبدت له كأنها رجال يقفون بالانتظار، أمام تلك الصورة الكبيرة لأخيه الشهيد، بدر اللبدة، معلقة وحدها، متشحة بالسواد، في صدر الغرفة.

وقال الرجل لفارس:

– ادخل. اجلس في الداخل. دعنا نتحدث قليلاً. لقد انتظرناكم طويلاً، وكنا نريد أن نراكم في مناسبة غير هذه.

ودخل فارس، كأنه يمشي عبر حلم لا يصدق، وجلس في مقعد يواجه صورة شقيقه. تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها صورة أخيه بدر منذ عشرين سنة، فحين خرجـوا من يافا (حملتهم الزوارق من منطقة تقع إلى الشمال من شط الشباب، واتجهت نحو غزة، إلا إن أباه عاد فهاجر إلى الأردن) لم يحملوا شيئاً معهم، ولا حتى صورة صغيرة لبدر الذي ظل هناك.

ولم يستطع فارس أن ينطق إلا بعد أن دخل طفلان إلى الغرفة، وأخذا يركضان بين المقاعد، ثم خرجا صاخبين كما دخلا، وقال الرجل:

– إنهما سعد وبدر. ابناي.

– بدر؟

– أجل سميناه على اسم أخيك الشهيد..

– والصورة؟

ووقف الرجل وقد تغير وجهه، ثم قال:

– أنا من يافا. من سكان المنشية. وفي حرب ١٩٤٨ هدمت قنابل المورتر بيتي. لست أريد أن أروي لك الآن كيف سقطت يافا. وكيف انسحبوا، أولئك الذين جاؤوا لينجدونا، لحظة المأزق. ذلك شيء راح الآن.. المهم أنني حين عدت مع المقاتلين إلى المدينة المهجورة اعتقلونا. وأمضيت فترة طويلة في المعتقل. ثم حين أطلقوني رفضت أن أغادر يافا، وقد عثرت على هذا البيت، واستأجرته من الحكومة.

– والصورة؟

– حين جئت إلى البيت كانت الصورة أول شيء شاهدته، وربما كنت قد استأجرت البيت بسببها. ذلك شيء معقد ولا أستطيع

أن أشرحه لك، ولكن حين احتلوا يافا كانت مدينة شبه فارغة، وبعد أن خرجت من السجن شعرت بأنني محاصر. لم أشهد عربياً واحداً هنا. كنت وحدي جزيرة صغيرة معزولة في بحر مصطخب من العداء. ذلك العذاب لم تجربه أنت، ولكن أنا عشته.

وحين شهدت الصورة وجدت فيها سلوى. وجدت فيها رفيقاً يخاطبني ويتحادث إليّ، ويذكرني بأمور أعتز بها وأعتبرها أروع ما في حياتنا. قررت عندها استئجار البيت، ففي ذلك الوقت – تماماً كما هو الأمر الآن – يبدو لي أن يكون الإنسان مع رفيق له حمل السلاح ومات في سبيل الوطن شيئاً ثميناً لا يمكن الاستغناء عنه. ربما كان نوعاً من الوفاء لأولئك الذين قاتلوا. كنت أشعر أنني لو تركته لكنت ارتكبت خيانة لا أغتفرها لنفسي. لقد ساعدني ذلك ليس على الرفض فقط، ولكن البقاء.. هكذا ظلت الصورة هنا. ظلت جزءاً من حياتنا، أنا وزوجتي لمياء وابني بدر وابني سعد وهو، أخوك بدر، عائلة واحدة، عشنا عشرين سنة معاً. كان شيئاً مهماً بالنسبة لنا...

وظل فارس حتى منتصف الليل جالساً هناك، ينظر إلى شقيقه بدر يبتسم في الصورة، مليئاً بالشباب والعنفوان، تحت ذلك الوشاح الأسود، كما كان يفعل طوال عشرين سنة، وحين قام ليعود سأل إن

كان يستطيع استرداد الصورة، وقال الرجل:

– طبعاً تستطيع. إنه شقيقك بعد كل شيء وقبل أي شيء آخر.

وقام فأنزل الصورة عن الجدار، وبدا المكان الذي خلفته وراءها مستطيلاً باهتاً من البياض الذي لا معنى له، والذي يشبه فراغاً مقلقاً.

وحمل فارس الصورة معه إلى السيارة، وعاد إلى رام الله. وكان طوال الطريق ينظر إليها متكئة إلى جانبه على المقعد، ويطل منها بدر وهو يبتسم تلك الابتسامة الشابة المشرقة، وقد ظل يفعل ذلك حتى اجتاز القدس، وصار على الطريق المتجه نحو رام الله، وعندها فقط انتابه شعور مفاجيء بأنه لا يملك الحق في الاحتفاظ بتلك الصورة، ولم يستطع أن يفسر الأمر لنفسه، إلا إنه طلب من السائق العودة إلى يافا، ووصلها في الصباح.

صعد السلم مرة أخرى بخطى بطيئة وقرع الباب وقال له الرجل وهو يتناول الصورة منه:

– شعرت بفراغ مروع حين نظرت إلى ذلك المستطيل الذي خلفته على الحائط. وقد بكت زوجتي، وأصيب طفلاي بذهول أدهشني. لقد ندمت لأنني سمحت لك باسترداد الصورة، ففي نهاية

المطاف هذا الرجل لنا نحن. عشنا معه وعاش معنا وصار جزءاً منا. وفي الليل قلت لزوجتي إنه كان يتعين عليكم، إن أردتم استرداده، أن تستردوا البيت، ويافا، ونحن... الصورة لا تحل مشكلتكم، ولكنها بالنسبة لنا جسركم إلينا وجسرنا إليكم.

وعاد فارس وحده إلى رام الله، وقال سعيد س. لزوجته:

– فارس اللبدة، لو تعرفين...

وهمس بصوت لا يكاد يسمع:

– إنه يحمل السلاح الآن.

وعلى الطريق هدر صوت محرك، ودخلت ميريام إلى الغرفة ووجهها يعلوه اصفرار مفاجئ. كانت الساعة قد قاربت منتصف الليل، وتقدمت العجوز القصيرة بخطى بطيئة نحو النافذة، فأزاحت الستائر برفق، ثم أعلنت بصوت مرتجف:

– ها هو دوف. لقد جاء!

جاءت الخطوات على الدرج شابة، ولكنها متعبة، وتتبعها سعيد س. واحدة بعد الأخرى وهي تصعد السلم منذ أن استمع، وأعصابه مشدودة، إلى صوت البوابة الحديدية تصطفق ثم تنغلق بالمزلاج.

وامتدت اللحظات طويلة يكاد صمتها يضج بطنين جنوني لا يحتمل. ثم سمع صوت المفتاح يعالج الباب، وعندها فقط نظر نحو ميريام ورأى – للمرة الأولى – أنها جالسة هناك، مصفرة الوجه وترتجف. ولم يكن لديه مقدار من الشجاعة يكفي للنظر إلى صفية،

فثبت عينيه ناحية الباب مستشعراً العرق يتفصد بقوة من جميع خلايا جسده دفعة واحدة.

وكانت أصوات الخطوات في الممر مكتومة ومحتارة بعض الشيء، ثم جاء صوت متردد، نصف عال، ينادي:

– ماما.

وارتجفت ميريام قليلاً، وأخذت تفرك راحتيها، فيما استمع سعيد س. إلى زوجته، تشرق بدمعها بصوت لا يكاد يسمع. وفي الخارج توقفت الخطوات قليلاً وكأنها تنتظر شيئاً، ثم جاء الصوت نفسه مرة أخرى، وحين صمت أخذت ميريام تترجم بصوت مرتجف هامس:

– إنه يسأل لماذا أنا في الصالون حتى هذه الساعة المتأخرة؟

وعادت الخطوات تتجه نحو الغرفة، وكان الباب موارباً، وقالت ميريام بالإنكليزية:

– تعال هنا يا دوف، يوجد ضيوف يرغبون برؤيتك.

وانفتح الباب بشيء من البطء، ولأول وهلة لم يصدق، فقد كان الضوء عند الباب باهتاً، ولكن الرجل الطويل القامة خطا إلى الأمام. كان يلبس بزة عسكرية، ويحمل قبعته بيده.

وقفز سعيد واقفاً كأن تياراً كهربائياً قذفه عن المقعد، ونظر

نحو ميريام وهو يقول بصوت متوتر:

– هذه هي المفاجأة؟ أهذه هي المفاجأة التي أردت منا انتظارها؟

واستدارت صفية نحو النافذة، تخفي وجهها براحتيها وتنشج بصوت مسموع.

أما الرجل الطويل القامة فقد ظل مسمراً أمام الباب، ينقل بصره نحو الثلاثة محتاراً، وعندها فقط قامت ميريام، وقالت للشاب بهدوء مفتعل وبطيء:

– أريد أن أقدم لك والديك.. والديك الأصليين.

وخطا الشاب الطويل القامة خطوة بطيئة إلى الأمام، وتغير لونه فجأة وبدا أنه فقد ثقته بنفسه دفعة واحدة. ثم نظر إلى بزته وعاد ينظر إلى سعيد، الذي كان واقفاً ما يزال أمامه يحدق إليه. وأخيراً قال الشاب بصوت خفيض:

– أنا لا أعرف أماً غيرك، أما أبي فقد قتل في سيناء قبل ١١ سنة، ولا أعرف غيركما.

وعاد سعيد إلى الوراء خطوتين، ثم جلس مكانه وأخذ راحة صفية بين يديه، وأدهشه – بينه وبين نفسه – كيف استطاع أن يسترد هدوءه بهذه السرعة. ولو قال له أي إنسان قبل خمس دقائق

فقط إنه سيكون جالساً هناك بمثل هذا الهدوء لما صدقه، أما الآن فقد تغير كل شيء.

ومضت لحظات بطيئة، كان كل شيء فيها ساكناً تماماً. ثم أخذ الشاب الطويل القامة يخطو ببطء: ثلاث خطوات نحو وسط الغرفة وثلاث أخرى نحو الباب، ثم عودة نحو وسط الغرفة. وضع قبعته على الطاولة، وبدت قرب المزهرية الخشبية وريش الطاووس فيها شيئاً غير مناسب، وإلى حد ما مضحكاً. وفجأة انتاب سعيد شعور غريب بأنه إنما يشاهد مسرحية معدة سلفاً بدقة، وتذكر مشاهد درامية مفتعلة في أفلام رخيصة تستدر توتراً تافهاً.

وتقدم الشاب من ميريام، وأخذ يقول لها بصوت أراد منه أن يكون قاطعاً ونهائياً ومسموعاً تماماً:

– وماذا جاءا يفعلان؟ لا تقولي إنهما يريدان استرجاعي!

وقالت ميريام بصوت مماثل:

– اِسألهما.

واستدار كقطعة خشب، كأنه ينفذ أمراً، وسأل سعيد:

– ماذا تريد يا سيدي؟

وظل سعيد محتفظاً بهدوئه الذي بدا له لحظتذاك مجرد قشرة رقيقة تخفي لهباً كامناً، وبصوت خفيض قال:

- لا شيء. لا شيء.. إنه مجرد فضول، كما تعلم.

وخيم صمت مفاجئ، فيما ارتفع صوت صفية بالنشيج وكأنه صادر من مقاعد متفرج هش التأثر. ونقل الشاب بصره مرة أخرى: من سعيد إلى ميريام ثم إلى قبعته المتكئة على المزهرية، وارتد إلى الوراء كأن شيئاً دفعه بقوة نحو المقعد المجاور لميريام، وجلس فيه وهو يقول:

- لا. ذلك شيء مستحيل، لا يصدق..

وسأل سعيد، بهدوئه المفاجئ:

- أنت في الجيش؟ من تحارب؟ لماذا؟

وانتفض الشاب واقفاً فجأة:

- ليس من حقك أن تسأل هذه الأسئلة. أنت على الجانب الآخر.

- أنا؟ أنا على الجانب الآخر.

وضحك بقوة، وشعر بأنه عبر تلك القهقهة العالية كان يدفع بكل ما في صدره من أسى وتوتر وخوف وفجيعة إلى الخارج، ورغب فجأة في أن يظل يقهقه ويقهقه حتى ينقلب العالم كله، أو ينام، أو يموت، أو يندفع خارجاً إلى سيارته، إلا إن الشاب قاطعه بحدة:

– لست أرى سبباً للضحك.

– أنا أرى.

وضحك لفترة قصيرة فحسب، ثم صمت، كما تفجر، واتكأ على مقعده مستشعراً تجدد الهدوء، وأخذ يبحث في جيبه عن سيكارة. وامتد الصمت طويلاً إلا إن صفية التي عادت فهدأت نفسها سألت بصوت خفيض:

– ألا تشعر بأننا والداك؟

ولم يعرف أحد لمن كان السؤال. فلا شك أن ميريام لم تفهم، ولا الشاب الطويل القامة. أما سعيد فلم يرد: كان قد أنهى سيكارته في تلك اللحظة فقام إلى الطاولة ليطفئها واضطر – كي يفعل ذلك – أن يزحزح القبعة من مكانها، وفعل ذلك وهو يبتسم بسخرية، ثم عاد إلى مكانه وجلس.

وعندها قال الشاب، وقد تغير صوته تماماً:

– دعونا نتحدث كأناس متحضرين.

وأخذ سعيد يضحك مرة أخرى، ثم قال:

– أنت لا تريد أن تفاوض... أليس كذلك؟ كنت تقول أنك، أو إنني، في الجهة الأخرى.. ماذا حدث؟ هل تريد أن نفاوض أم ماذا؟

وسألته صفية مستثارة:

– ماذا قال؟

– لا شيء.

وعاد الشاب فوقف، وأخذ يتحدث وكأنه حضّر تلك الجمل منذ فترة طويلة:

– أنا لم أعرف أن ميريام وإفرات ليسا والدي إلا قبل ثلاث أو أربع سنوات. منذ صغري وأنا يهودي. أذهب إلى الكنيس وإلى المدرسة اليهودية وآكل الكوشير وأدرس العبرية. وحين قالا لي إنني لست من صلبهما، لم يتغير أي شيء. وكذلك حين قالا لي – بعد ذلك – إن والدي الأصليين هما عربيان، لم يتغير أي شيء. لا، لم يتغير. ذلك شيء مؤكد.. إن الإنسان هو في نهاية الأمر قضية.

– من قال ذلك؟

– قال ماذا؟

– من الذي قال إن الإنسان هو قضية؟

– لا أعرف، لا أذكر.. لماذا تسأل؟

– لمجرد الفضول، الصحيح لمجرد أن ذلك بالضبط ما كان يدور في بالي هذه اللحظة.

– أن الإنسان هو قضية؟

– بالضبط.

– إذن لماذا جئت تبحث عني؟

– لست أدري. ربما لأنني لم أكن أعرف ذلك، أو كي أتأكد منه أكثر. لست أدري، على أي حال لماذا لا تكمل؟

وعاد الشاب الطويل القامة يمشي وهو يعقد كفيه وراء ظهره: ثلاث خطوات نحو الباب وثلاث خطوات نحو الطاولة. لقد بدا تلك اللحظة وكأنه حفظ عن ظهر قلب درساً طويلاً، وأنه حين قوطع في وسطه، لم يعد يعرف كيف يكمله، وهو يسترجع صامتاً، في رأسه، الجزء الأول كي يصير بوسعه المتابعة، وفجأة قال:

– بعد أن عرفت أنكما عربيان كنت دائماً أتساءل بيني وبين نفسي: كيف يستطيع الأب والأم أن يتركا ابنهما وهو في شهره الخامس ويهربان؟ وكيف يستطيع من هو ليس أمه وليس أباه أن يحتضناه ويربياه عشرين سنة؟ عشرين سنة؟ أتريد أن تقول شيئاً يا سيدي؟

– لا.

قال سعيد باختصار حاسم، وأشار له بيده كي يتابع.

– إنني في قوات الاحتياط الآن، لم يقدر لي خوض معركة مباشرة إلى الآن لأصف لك شعوري، ولكن ربما في المستقبل أستطيع أن أؤكد لك مجدداً ما سأقوله الآن: إنني أنتمي إلى هنا، وهذه

السيدة هي أمي، وأنتما لا أعرفكما ولا أشعر إزاءكما بأي شعور خاص.

– لا حاجة لتصف لي شعورك فيما بعد، فقد تكون معركتك الأولى مع فدائي اسمه خالد، وخالد هو ابني، أرجو أن تلاحظ أنني لم أقل إنه أخوك، فالإنسان كما قلت قضية، وفي الأسبوع الماضي التحق خالد بالفدائيين... أتعرف لماذا أسميناه خالد ولم نسمه خلدون؟ لأننا كنا نتوقع العثور عليك، ولو بعد عشرين سنة، ولكن ذلك لم يحدث. لم نعثر عليك.. ولا أعتقد أننا سنعثر عليك.

ونهض سعيد س. متثاقلاً. الآن فقط شعر أنه متعب، وأنه هدر عمره بصورة عابثة. وساقه هذا الشعور إلى كآبة لم يكن يتوقعها، وأحس بأنه على وشك أن يبكي، فقد كان يعرف أنه كذب، وأن خالداً لم يلتحق بالفدائيين. وفي الواقع كان هو الذي منعه. بل مضى ذات يوم إلى حد تهديده بالتبرؤ منه إن هو عصى إرادته والتحق بالمقاومة. وبدت له الأيام القليلة الماضية مجرد كابوس انتهى على صورة مفزعة، أهو نفسه الذي كان قبل أيام يهدد ابنه خالد بالتبرؤ من أبوته له؟ أي عالم عجيب لا يصدق. الآن لا يجد شيئاً ليدافع به عن نفسه أمام تبرؤ هذا الشاب الطويل القامة من بنوته له إلا افتخاره بأبوته لخالد، خالد نفسه الذي حال دونه ودون الالتحاق بالفدائيين بذلك السوط التافه الذي كان يسميه الأبوة! من

يدري، فربما اقتنص خالد الفرصة أثناء وجوده هو في حيفا فهرب... آه لو فعل! كم سيكون من المخيب لكل قيم هذا الوجود إن هو عاد إلى البيت فوجد خالد بانتظاره!

مشى سعيد خطوتين وأخذ، مرة أخرى، يعد ريشات الطاووس الخمس التي كانت في المزهرية الخشبية، ولأول مرة منذ دخل الشاب الطويل القامة إلى الغرفة، نظر إلى ميريام، وببطء قال لها:

– إنه يتساءل كيف يترك الأب والأم ابنهما الرضيع في السرير ويهربان... أنت يا سيدتي لم تقولي له الحقيقة، وحين رويتها له كان الوقت قد مضى، أنحن الذين تركناه؟ أنحن الذين قتلنا ذلك الطفل قرب كنيسة بيت لحم في الهادار؟ الطفل الذي كانت جثته، كما قلت لنا، أول شيء صدمك في هذا العالم الذي يسحق العدل بحقارة كل يوم.. ربما كان ذلك الطفل هو خلدون! ربما كان ذلك الشيء الصغير الذي مات ذلك اليوم التعيس هو خلدون.. بل إنه خلدون، وأنت كذبت علينا إنه خلدون، وقد مات، وهذا ليس إلا طفلاً يتيماً عثرت عليه في بولونيا، أو إنكلترا.

كان الشاب الطويل القامة ينكفئ على نفسه كشيء محطوم في كرسيه، وقال سعيد لنفسه: لقد فقدناه، ولكنه بلا ريب فقد نفسه بعد هذا كله، ولن يكون أبداً كما كان قبل ساعة. وأعطاه هذا

الاعتقاد شعوراً غامضاً بارتياح لا يفسر، وذلك كان ما دفعه نحو الكرسي الذي كان الشاب الطويل القامة جالساً فيه، ووقف أمامه وقال:

– الإنسان في نهاية المطاف قضية، هكذا قلت، وهذا هو الصحيح، ولكن أية قضية؟ هذا هو السؤال! فكر جيداً. خالد هو أيضاً قضية، ليس لأنه ابني، ففي الواقع... دع تلك التفاصيل، على أي حال، جانباً.. إننا حين نقف مع الإنسان فذلك شيء لا علاقة له بالدم واللحم وتذاكر الهوية وجوازات السفر.. هل تستطيع أن تفهم ذلك؟ حسناً، دعنا نتصور أنك استقبلتنا – كما حلمنا وهماً عشرين سنة – بالعناق والقبل والدموع.. أكان ذلك قد غير شيئاً؟ إذا قبلتنا أنت؛ فهل نقبلك نحن؟ ليكن اسمك خلدون أو دوف أو إسماعيل أو أي شيء آخر.. فما الذي يتغير؟ ومع ذلك فأنا لا أشعر بالاحتقار إزاءك، والذنب ليس ذنبك وحدك، ربما سيبدأ الذنب منذ هذه اللحظة ليصبح مصيرك، ولكن قبل ذلك ماذا؟ أليس الإنسان هو ما يحقن فيه ساعة وراء ساعة ويوماً وراء يوم وسنة وراء سنة؟ إذا كنت أنا نادماً على شيء فهو أنني اعتقدت عكس ذلك طوال عشرين سنة !

وعاد يجر خطواته، محاولاً أن يبدو أهدأ ما يكون، عائداً إلى مقعده، إلا إنه في تلك الخطوات القليلة التي كانت تمر عبر الطاولة

المصدفة، بريش الطاووس الذي يتمايل في المزهرية الخشبية وسطها، بدت له الأشياء مختلفة تماماً عما كانت عليه حين دخل هذه الغرفة للمرة الأولى قبل ساعات، وسأل نفسه فجأة: ما هو الوطن؟ وابتسم بمرارة، وأسقط نفسه، كما يسقط الشيء، في مقعده، وكانت صفية تنظر إليه قلقة، وتفتح في وجهه عينين متسائلتين، وعندها فقط خطر له أن يشركها في الأمر، فسألها:

– ما هو الوطن؟

وارتدت إلى الوراء مندهشة وهي تنظر إليه كمن لا يصدق ما سمع، ثم سألته برقة يكتنفها الشك:

– ماذا قلت؟

– سألت ما هو الوطن؟ وكنت أسأل نفسي ذلك السؤال قبل لحظة. أجل، ما هو الوطن؟ أهو هذان المقعدان اللذان ظلا في هذه الغرفة عشرين سنة؟ الطاولة؟ ريش الطاووس؟ صورة القدس على الجدار؟ المزلاج النحاسي؟ شجرة البلوط؟ الشرفة؟ ما هو الوطن؟ خلدون؟ أوهامنا عنه؟ الأبوة؟ البنوة؟ ما هو الوطن؟ بالنسبة لبدر اللبدة، ما هو الوطن؟ أهو صورة أخيه معلقة على الجدار؟ إنني أسأل فقط.

ومرة جديدة، ومفاجئة أخذت صفية تبكي، وتجفف دموعها

بمنديلها الأبيض الصغير، وقال سعيد لنفسه وهو ينظر إليها: لقد شاخت هذه المرأة حقاً، واستنزفت شبابها وهي تنتظر هذه اللحظة، دون أن تعرف أنها لحظة مروعة.

وعاد فنظر إلى دوف وبدا له مستحيلاً تماماً أن يكون هذا الشاب من صلب تلك المرأة، وحاول أن يستشف شبهاً ما بينه وبين خالد، إلا إنه لم يعثر على أيّما شبه بين الرجلين، بل رأى بصورة ما تضاداً بينهما يكاد يكون متعاكساً تماماً، واستغرب أن يكون قد فقد أيما عاطفة إزاءه، وتصور أن مجموع ذاكرته عن خلدون كانت قبضة من الثلج أشرقت عليها فجأة شمس ملتهبة فذوبتها.

وكان ما يزال ينظر إلى دوف حين قام هذا الآخر فجأة ووقف أمام سعيد منتصباً كأنه يتصدر طابوراً من الجنود المختبئين، وبذل جهده كي يكون هادئاً:

– كان يمكن لذلك كله ألا يحدث لو تصرفتم كما يتعين على الرجل المتحضر الواعي أن يتصرف.

– كيف؟

– كان عليكم ألا تخرجوا من حيفا. وإذا لم يكن ذلك ممكناً، فقد كان عليكم بأي ثمن ألا تتركوا طفلاً رضيعاً في السرير. وإذا كان هذا أيضاً مستحيلاً فقد كان عليكم ألا تكفوا عن محاولة العودة...

أتقولون إن ذلك أيضاً كان مستحيلاً؟ لقد مضت عشرون سنة يا سيدي! عشرون سنة! ماذا فعلت خلالها كي تسترد ابنك؟ لو كنت مكانك لحملت السلاح من أجل هذا. أيوجد سبب أكثر قوة؟ عاجزون! عاجزون! مقيدون بتلك السلاسل الثقيلة من التخلف والشلل! لا تقل لي إنكم أمضيتم عشرين سنة تبكون! الدموع لا تسترد المفقودين ولا الضائعين ولا تجترح المعجزات! كل دموع الأرض لا تستطيع أن تحمل زورقاً صغيراً يتسع لأبوين يبحثان عن طفلهما المفقود.. ولقد أمضيت عشرين سنة تبكي... أهذا ما تقوله لي الآن؟ أهذا هو سلاحك التافه المفلول؟

وارتد سعيد إلى الوراء، مدهوشاً ومطعوناً، وأحس بدوار مفاجئ يعصف به، أيمكن أن يكون ذلك كله حقيقياً؟ ألا يمكن أن يكون مجرد حلم طويل وممطوط وكابوس لزج يفرش نفسه فوقه كأخطبوط هائل؟ وأخذ ينظر إلى صفية التي كانت دهشتها قد اتخذت شكل الانهيار المهيض الجناح، وشعر بحزن عميق من أجلها، ولمجرد أن لا يبدو غبياً، اتجه نحوها، وقال لها بصوت مرتجف:

– لست أريد أن أناقشه.

– ماذا قال؟

– لا شيء. بلى. قال إننا جبناء.

وسألت صفية ببراءة:

- ولأننا جبناء يصير هو كذلك؟

عندها فقط استدار نحوه، كان ما يزال واقفاً منتصب القامة، وبدت ريشات الطاووس المطلة وراءه وكأنها تشكل ذيلاً لديك كبير خاكي اللون يقف هناك، وابتعث فيه المنظر انتعاشاً غير متوقع، فقال:

- زوجتي تسأل إن كان جبننا يعطيك الحق في أن تكون هكذا، وهي، كما ترى، تعترف ببراءة بأننا كنا جبناء، ومن هنا فأنت على حق، ولكن ذلك لا يبرر لك شيئاً، إن خطأ زائد خطأ لا يساويان صحاً، ولو كان الأمر كذلك لكان ما حدث لإفرات ولميريام في أوشفيتز صواباً، ولكن متى تكفون عن اعتبار ضعف الآخرين وأخطائهم مجيرة لحساب ميزاتكم؟ لقد اهترأت هذه الأقوال العتيقة، هذه المعادلات الحسابية المترعة بالأخاديع.. مرة تقولون إن أخطاءنا تبرر أخطاءكم، ومرة تقولون إن الظلم لا يصحح بظلم آخر.. تستخدمون المنطق الأول لتبرير وجودكم هنا، وتستخدمون المنطق الثاني لتتجنبوا العقاب الذي تستحقونه، ويخيل إلي أنكم تتمتعون إلى أقصى حد بهذه اللعبة الطريفة، وها أنت تحاول مرة جديدة أن تجعل من ضعفنا حصان الطراد الذي تعتلي صهوته.. لا،

أنا لا أتحدث إليك مفترضاً أنك عربي، والآن أنا أكثر من يعرف أن الإنسان هو قضية، وليس لحماً ودماً يتوارثه جيل وراء جيل مثلما يتبادل البائع والزبون معلبات اللحم المقدد، إنما أتحدث إليك مفترضاً أنك في نهاية الأمر إنسان، يهودي، أو فلتكن ما تشاء. ولكن عليك أن تدرك الأشياء كما ينبغي.. وأنا أعرف أنك ذات يوم ستدرك هذه الأشياء، وتدرك أن أكبر جريمة يمكن لأي إنسان أن يرتكبها، كائناً من كان، هي أن يعتقد ولو للحظة أن ضعف الآخرين وأخطاءهم هي التي تشكل حقه في الوجود على حسابهم، وهي التي تبرر له أخطاءه وجرائمه...

وصمت لحظة، ثم نظر مباشرة في عيني دوف:

– وأنت، أتعتقد أننا سنظل نخطئ؟ وإذا كففنا ذات يوم عن الخطأ، فما الذي يتبقى لديك؟

وشعر، ثمة، أن عليهما أن ينهضا وينصرفا، فقد انتهى الأمر كله، ولم يعد هناك ما يقال بعد، وأحس تلك اللحظة بشوق غامض لخالد، وود لو يستطيع أن يطير إليه ويحتويه ويقبله ويبكي على كتفه، مستبدلاً أدوار الأب والابن على صورة فريدة لا يستطيع تفسيرها. هذا هو الوطن، قالها لنفسه وهو يبتسم، ثم التفت نحو زوجته:

– أتعرفين ما هو الوطن يا صفية؟ الوطن هو ألا يحدث ذلك

كله.

وسألته زوجته متوترة بعض الشيء:

– ماذا حدث لك يا سعيد؟

لا شيء. لا شيء أبداً. كنت أتساءل فقط. أفتش عن فلسطين الحقيقية. فلسطين التي هي أكثر من ذاكرة، أكثر من ريشة طاووس، أكثر من ولد، أكثر من خرابيش قلم رصاص على جدار السلم. وكنت أقول لنفسي: ما هي فلسطين بالنسبة لخالد؟ إنه لا يعرف المزهرية، ولا الصورة، ولا السلم ولا الحليصة ولا خلدون، ومع ذلك فهي بالنسبة له جديرة بأن يحمل المرء السلاح ويموت في سبيلها، وبالنسبة لنا، أنت وأنا، مجرد تفتيش عن شيء تحت غبار الذاكرة، وانظري ماذا وجدنا تحت ذلك الغبار... غباراً جديداً أيضاً! لقد أخطأنا حين اعتبرنا أن الوطن هو الماضي فقط، أما خالد فالوطن عنده هو المستقبل، وهكذا كان الافتراق، وهكذا أراد خالد أن يحمل السلاح. عشرات الألوف مثل خالد لا تستوقفهم الدموع المفلولة لرجال يبحثون في أغوار هزائمهم عن حطام الدروع وتفل الزهور، وهم إنما ينظرون للمستقبل، ولذلك هم يصححون أخطاءنا، وأخطاء العالم كله.. إن دوف هو عارنا، ولكن خالد هو شرفنا الباقي.. ألم أقل لك منذ البدء إنه كان يتوجب علينا ألا نأتي... وإن

ذلك يحتاج إلى حرب؟ هيا بنا!

لقد عرف خالد ذلك قبلنا.. آه يا صفية.. آه.

ووقف فجأة، ووقفت صفية إلى جانبه وهي تفرك منديلها محتارة، وظل دوف جالساً، منكفئاً على نفسه، وكانت قبعته متكئة على المزهرية وتبدو هناك، لسبب ما، مضحكة تماماً، وقالت ميريام ببطء:

– لا تستطيعان أن تغادرا هكذا، لم نتحدث كفاية عن الموضوع.

وقال سعيد:

– ليس ثمة ما يقال. بالنسبة لك ربما كان الأمر كله حدثاً سيئ الحظ، ولكن التاريخ ليس كذلك، ونحن حين جئنا هنا كنا نعاكسه، وكذلك، أعترف لك، حين تركنا حيفا، إلا إن ذلك كله شيء مؤقت. أتعرفين شيئاً يا سيدتي؟ يبدو لي أن كل فلسطيني سيدفع ثمناً، أعرف الكثيرين دفعوا أبناءهم، وأعرف الآن أنني أنا الآخر دفعت ابناً بصورة غريبة، ولكنني دفعته ثمناً... ذلك كان حصتي الأولى، وهذا شيء سيصعب شرحه.

واستدار، وكان دوف لا يزال منكفئاً في مقعده محتوياً رأسه بين راحتيه، وحين وصل سعيد إلى الباب قال:

– تستطيعان البقاء مؤقتاً في بيتنا، فذلك شيء تحتاج تسويته إلى حرب.

وبدأ ينزل السلم، محدقاً بدقة إلى كل الأشياء، وقد بدت له أقل أهمية مما كانت قبل ساعات، وغير قادرة على إثارة أيّما شيء في أعماقه، ووراءه كان يسمع أصوات خطى صفية أكثر وثوقاً من قبل. وكان الطريق في الخارج خالياً تقريباً. اتجه إلى سيارته وتركها تنزلق على السفح دونما صوت، وعند المنعطف فقط أدار محركها واتجه نحو شارع الملك فيصل.

وقد ظل صامتاً طوال الطريق، ولم يتلفظ بأيّما شيء إلا حين وصل إلى مشارف رام الله، عندها فقط نظر إلى زوجته وقال:

– أرجو أن يكون خالد قد ذهب... أثناء غيابنا!

سلسلة أعمال غسان كنفاني من منشورات الرمال

روايات

رجال في الشمس

أم سعد

ما تبقى لكم

العاشق/ برقوق نيسان/ الأعمى والأطرش

الشيء الآخر (من قتل ليلى الحايك؟)

عائد إلى حيفا

قصص قصيرة

موت سرير رقم ١٢

أرض البرتقال الحزين

عالم ليس لنا

عن الرجال والبنادق

القميص المسروق

مسرحيات

الباب

القبعة والنبي

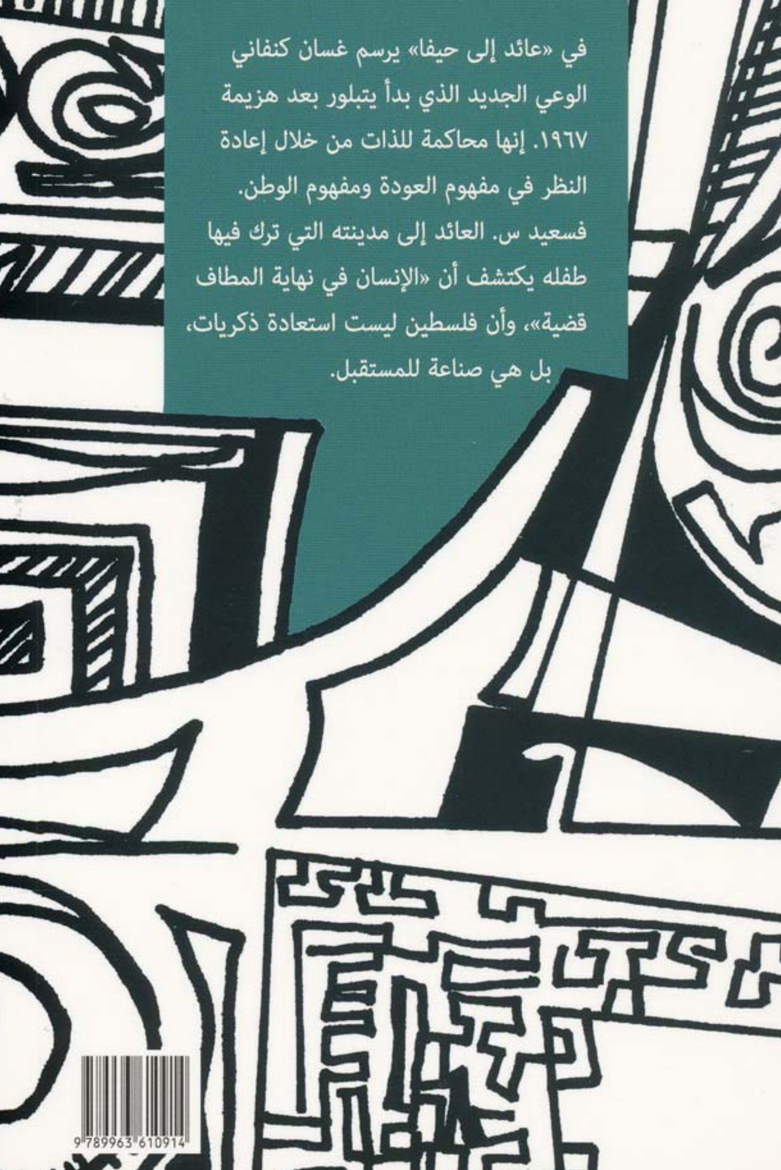
جسر إلى الأبد

دراسات

الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال ١٩٤٨-١٩٦٨

أدب المقاومة في فلسطين المحتلة ١٩٤٨-١٩٦٦

في الأدب الصهيوني



في «عائد إلى حيفا» يرسم غسان كنفاني الوعي الجديد الذي بدأ يتبلور بعد هزيمة ١٩٦٧. إنها محاكمة للذات من خلال إعادة النظر في مفهوم العودة ومفهوم الوطن. فسعيد س. العائد إلى مدينته التي ترك فيها طفله يكتشف أن «الإنسان في نهاية المطاف قضية»، وأن فلسطين ليست استعادة ذكريات، بل هي صناعة للمستقبل.

9 789963 610914